والت ويتمان

أغنية نفسي

ترجمة

د. عابد اسماعيل



أغنية نفسي

Song of Myself

Walt Whitman

Translated by:

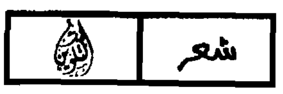
Dr. Abed Ismael

أغنية نفسي

النص الكامل لقصيدة الشاعر الأمريكي
وولت ويتمان

ترجمة وتقديم

د. عابد اسماعيل



اغنية نفسي

Song of Myself

وولت ويتمان

Walt Whitman

ترجمة وتقديم

د. عابد إسماعيل

Translated by:

Dr. Abed Ismael

الطبعة الأولى 2006



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - هاتف: 2236468- 094330989

البريد الالكتروني: taakwen@yahoo.com

مقدمة

1 - القصيدة

هذه القصيدة، التي ظهرت في عام 1855، لم تكن تحمل عنواناً، واحتلت أكثر من نصف الطبعة الأولى من ديوان (أوراق العشب) إبان صدوره في العام نفسه. في الطبعة الثانية، أي في عام 1856، وضع ويتمان لها عنواناً هو (قصيدة وولت ويتمان، الأمريكي). وبدءاً من عام 1860، وما تلا ذلك من طبعات، طرأ تعديل طفيف على العنوان، وأصبح بكل بساطة، (وولت يتمان). في عام 1881، يجد الشاعر ضالته، ويختار عنواناً ثابتاً للقصيدة، هو (أغنية نفسي)، الذي سيرافق القصيدة في جميع الطبعات اللاحقة.

بالعودة إلى هوامش الشاعر، وإلى دفتر ملاحظاته، نجد أن فكرة القصيدة، أو نواتها الأولى، تشكّلت بين عامي 1847 و1848، ثمّ بدأت تنمو، على مهلها، كالنبتة بين أصابعه، أو داخل مختبره الشعري، على مدى طبعات سبع، كان يضيف إليها، ويحذف منها، يشذّبُ هنا، ويهذّب هناك. وخلال عمليات التنقيح تلك، لم يكن

الشاعرُ يعدّل، كثيراً، من جوهر القصيدة، أو أفقها الدلالي العامّ، بل كان يكتفي بالتحليق حولها، ووضع لمسات خاطفة على مفاصلَ تطالُ اللغةَ، والأسلوب، والمفردات فحسب.

(أغنية نفسي) تمثل ذروة نشيد الشاعر، فهي قصيدة واثقة من مضمونها؛ وما بدا لبعض المعلقين والنقاد الأوائل على أنه نوع من الفوضى الشعرية، أصبح يُنظر إليه اليوم على أنه بنية متعمّدة وواعية - وربما كانت مثالاً حداثياً مبكراً لما يدعى طريقة التداعي الحر (free association)، على الرغم من أنها تداعيات مضبوطة جيداً، مسبوكة ومصقولة، تتجاوز ما يلجُ الشعورَ والإدراك للوهلة الأولى.

الحركة في القصيدة دائرية أكثر منها تصّاعدية، فالنفس (Self) تعود دائماً إلى ذاتها، في فعل استحضار اللّذة والبوح، والتأكيد على التماهي مع الوجود، عبر ذاك التناغم الحرّ بين الجسد والروح، الأنا والآخر، حيث تتحول أغنية الشاعر إلى احتفالية ملحمية، تدمجُ الكوني بالشّخصي، وتصهر المتناقضات في بوتقة واحدة.

ويرى النقاد أن (أغنية نفسي) هي من أهم نصوص ويتمان على الإطلاق، فهي تلخص رؤيته للعالم، وتستقرأُ أبجديةَ

ما يُسمى الحلم الأمريكي، وتكشف نزوع الفرد إلى الانعتاق من ربقة المؤسسة، والنظام، والعقيدة. كما أنها تمثّل تجسيداً شعرياً هائلاً لتلك الأسس الفلسفية التي قامت عليها الفلسفة الماورائية (transcendentalism)، التي بشرّ بها الرائي الأمريكي الشهير رالف والدو إمرسون، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. ناهيك أنها تحتضنُ ميزات فنية مدهشة، يبثّها ويتمان في أسلوبه، من خلال لغةٍ تنسابُ وتتدفّقُ وتتداحُ، لا تحدّها قافية أو يقيّدها وزن، ولا تلتزم بمقياس عروضي أو تفعيلوي. من هنا الأهمية الفريدة لويتمان، وريادته في إرساء نمط شعري جديد، يقوم على الموسيقى الداخلية، يتمثّل في قصيدة النثر (prose poem)، وهذا ما يمثّل انقلاباً على النسق الرومانسي التقليدي الذي يمثله شاعرٌ مثل إدغار آلان بو، على صعيدي الشكل والمضمون. ولن ننسى إسهام ويتمان الفذّ في خلق شعرية أمريكية مختلفة، ذات طعمٍ أمريكي ورائحة أمريكية، تتكئ على رؤية بانورامية للعالم الجديد، في مغامرة اكتشاف الذات، والتأسيس لنهضة شعرية أمريكية، تنحرف جذرياً عن نماذجها الأوربية السائدة، وتبتكر أساطيرَها ورموزها الخاصّة بها.

2- الشاعر

ولد وولت ويتمان في 31 أيار من عام 1819في ويست هيلل، التابعة لمقاطعة لونغ آيلاند، المجاورة لمدينة نيويورك. في عام 1823 انتقل مع عائلته إلى مدينة بروكلين. (وقد حالفني الحظ أن أعيش في هذه المدينة لمدة ست سنوات، تجوّلتُ خلالها في معظم الأماكن التي عمل بها ويتمان، حيث كنتُ أعبر يومياً الحديقة المسماة باسمه (Walt Whitman Park) في طريقي إلى جامعتي في مدينة مانهاتن، التي تقع على الضفة المقابلة من نهر هدسون. وفي كل ربيع، كان أهل بروكلين يقيمون احتفالاً رمزياً للشاعر، ويعلقون سطوراً من قصائده على جذوع أشجار الحور في الحديقة المذكورة، فتبدو للناظر وكأنها أورقت للتوّ هناك.)

بين عامي 1825 و1830 التحق ويتمان بمدرسة بروكلين الحكومية، وبعد تخرجه عمل لمدة عام في مكتب محامٍ ومن ثمّ في عيادة طبيب، قبل أن يتوجه إلى مهنة الطباعة ويتعلم الحرفة بين عامي 1830 و1834. وقد مارس مهنة الطباعة لمدة عام كامل في مدينة نيويورك، لكن الحريق الكبير الذي شبّ في الثاني عشر من آب عام 1835 أجبره على تغيير وجهته، حيث بدأ في صيف 1836 التدريسَ في

إيست نورويتش ولونغ آيلاند، وغيرها من المدارس، حتى عام 1838 حين بدأ بتحرير أسبوعية أدبية تسمى (The Long Islander) في مدينة هنتيغنتون. ظلّ يعمل في المجلة لمدة سنتين، قبل أن يلتحق في عام 1841 بمطبعة جديدة في نيويورك، وبدأ يكتب لصالح الدّورية الشهرية في المدينة (Democratic Review). في عام 1842 ساهم بتحرير جريدتين هما (Aurora) و (Evening Tattler)، ولكن لوقت قصير فقط. وخلال السنوات الثمان التالية تنقّل من مجلة إلى أخرى، وعمل في الصحافة الحرة في أكثر من ولاية، منها نيو أورليانز. بين عامي 1850 و 1854 أدار مكتباً للطباعة ودكاناً للقرطاسية. في أوائل تموز من عام 1855 ظهرت الطبعة الأولى من (أوراق العشب) حيث تزامن ذلك مع وفاة والده في الشهر نفسه. في السنة التالية، أي في 1856 نشرَ ويتمان الطبعة الثانية. وبين عامي 1856 و 1859 عمل محرراً رئيسياً لمجلة (Times) في بروكلين، وفي السنة التالية ترك عمله، وأمضى سنةً كاملة عاطلاً عن العمل، يتنقّلُ من بار إلى بار، ويحيا حياة بوهيمية خالصة. في عام 1860 ذهب إلى مدينة بوسطن لرؤية الطبعة الثالثة من (أوراق العشب.) في عام 1861 نشبت الحرب الأهلية الأمريكية، وكان لها أثراً دامغاً على مخيلة ويتمان، وفي

عام 1862 ذهب إلى ولاية فيرجينيا التي شهدت معارك طاحنة، ومكث في إحدى المعسكرات لمدة أسبوعين، حيث كان يرقد أخوه جورج جريحاً. كما أنه راح يتنقّل بين مشافي واشنطن، ويسهر، نفسياً وجسدياً، على راحة الجنود الجرحى. في سنة 1865 عُيّن كاتباً في وزارة الداخلية، لكنه سرعان ما ترك عمله. شهد التنصيب الثاني للرئيس أبراهام لينكولن، وكان اغتيال هذا الأخير في الرابع عشر من نيسان عام 1865 ضربة موجعة لويتمان، وكتب مرثيته الشهيرة عن لينكولن تحت عنوان (عندما أزهرَ الليلكُ على بابه لآخر مرة). في عام 1870 تظهر الطبعةُ الخامسة من (أوراق العشب). ويُقال إن ويتمان، خلال هذا العام بالذات، ظلّ يعاني من كآبة مستديمة لأسباب غير معروفة. في سنة 1873 أصيب الشاعر بشلل مفاجئ، وتوفيت والدته بعد أيام، فالتحق بأخيه جورج الذي كان يقطن في نيوجرسي، ومكث معه. وظل ويتمان يعاني الوهن لعدة سنوات، بالرغم من أنه كان يتعافى تدريجياً ويلقي بعض المحاضرات في جامعات نيويورك وفلادلفيا، كما أنه زار عدة ولايات في الغرب الأمريكي، منها كولارادو، بغاية الاستجمام. في عام 1881 عاد إلى مدينة بوسطن لإلقاء بعض المحاضرات،

والإشراف على طبعة جديدة من ديوانه (أوراق العشب)، حيث أخذت قصائد الكتاب شكلَها النهائي. في عام 1882 التقى الكاتب الإنكليزي أوسكار وايلد. في سنواته الأخيرة، اشترى بيتاً في مدينة كامدن، بولاية نيوجرسي، بعد أن بدأت صحته بالتدهور. في عام 1891 وضع اللمسات الأخيرة على الطبعة الأخيرة، أو ما يسمى طبعة فراش الموت لديوانه (أوراق العشب). وفي 26 آذار من عام 1892 فارق وولت ويتمان الحياة، ودُفنَ في مدينة كامدن، نيوجرسي.

3- الترجمة:

أستطيع أن أزعمَ، بشيء من التطرّف، أن القارئ العربي لم يقرأ ويتمان بعد، بالرّغم من وجود أكثر من ترجمة معروفة لقصائده إلى العربية. فالنماذج التي أتيح لي قراءتها لا ترتقي أبداً إلى مستوى النص الأصلي، فهي تعاني الكثير من التشويه، ومن عدم القدرة على فهم المعنى العامّ، أو الخاصّ، أو حتى الاقتراب، مجرّد الاقتراب، من أسلوب ويتمان الحرّ، المنطلق، والمندفع كالسيل.

في تلك النماذج، ثمة حذف متعمّد للكثير من المقاطع، دون أي مبرّر شعري، سوى أن المترجم لم يفهم، بكل

بساطة، اللغة الاصطلاحية (Idiomatic English) التي تميّز بينة اللغة الإنكليزية، من جهة، كما أنه، أي المترجم، لم يستطع القبضَ على خصوصية ويتمان الشعرية، من خلال إحالاتها الفنية إلى وقائع وأحداث تتعلق بالبيئة الأمريكية والثقافة الأمريكية، من جهة أخرى. وصعقني أن تكون بعض هذه الترجمات لشعراء معروفين جداً، ممن يُفترض أن يكون لهم باعٌ طويلٌ في إدارة الجملة الشعرية، المنقولة عن لغة أخرى. ووجدتُ أن هذه النماذج - المعروفة والشائعة - لا تتسم بالجدّية أو الدقّة، أو حتى الشعور بالمسؤولية، التي يجب أن يتوخّاها المترجمُ في علاقته بالنصّ الأصلي. على النقيض من ذلك، لمستُ غرورَ هؤلاء المترجمين، واستسلامهم لسمعة مكرّسة، بحيث ينزعون لرشّ الرّماد في العيون، ويتدخّلون على هواهم، ويحذفون ويضيفون على هواهم، ويلعبون، كثيراً أو قليلاً، بالنصّ الأصلي، على هواهم أيضاً.

وتحت حجج لا شعرية في الغالب، رأيتُ أن هؤلاء يسعون إلى "شعرنة" لغة ويتمان، أو "تعريبها" وفق أسلوب يخصّهم وحدهم. فيجد القارئ أن ويتمان يشبه كفافي أو ريتسوس، على سبيل المثال، لأنّ قلم المترجم واحد، وعاداته الأسلوبية واحدة، مما يقتل التميّز بين شاعرٍ

وآخر، أو بين ثقافة شعرية وأخرى. ويحق لنا أن نتساءل: هل حقاً يحتاج ويتمان، أو أي شاعرٍ آخر، لمن يعدّل له أسلوبه أو رؤيته الشعرية، مهما كان المترجمُ واثقاً من "عبقريته" الشعرية؟

إذن، ثمة تشويه كبير على مستوى الدلالة والأسلوب والرؤية في تلك الترجمات. وهذا لا ينطبق فقط على قصيدة (أغنية نفسي)، بل على مختارات شعرية أخرى لويتمان. من هنا وجدتُ نفسي منجرفاً بكليتي، باتجاه نصّ ويتمان، وأخصّ بالذكر القصيدة التي بين أيدينا، للوقوف وجهاً لوجه أمام هذا الرائي الأمريكي الكبير، وكأنّما للمرة الأولى. وشعرتُ أن من واجبي، كقارئ مهتمّ بالشعر أولاً، وأكاديمي مختصّ بالشعر الأمريكي ثانياً، أن أقدم للقارئ العربي، صورةً أخرى للشاعر وللقصيدة، تكون - كما آملُ- أقرب إلى صورته الحقيقية، بعيدة عن الضبابية والتزوير، ووفية، قدر المستطاع، للنصّ للأصلي، وبالطبع دون أي حذفٍ أو تشويه. وللقارئ أن يُقارنَ ويقيّمَ في نهاية المطاف.

دمشق، نيسان، 2005

د.عابد اسماعيل

أغنيةُ نفسي

1

أحتفلُ بنفسي وأغنّي نفسي،
وما أفترضُه سوف تفترضونه،
لأنّ كلّ ذرةٍ تخصّني تخصّكم

أهيمُ وأدعو نفسي،
أتوقّف ثمّ أهيمُ على هواي، مراقباً وريقةً من عشب الصّيف.

لساني، وكل ذرة من دمي، تشكّلت من هذه الأرض، هذا الهواء،
ولدتُ هنا، لأبوين ولدا هنا، من أبوين ولدا هنا،
أنا، في السابعة والثلاثين الآن، موفور الصّحة، أبدأُ
راغباً أن لا أتوقّف حتى الممات.

المذاهبُ والمدارسُ معلّقة،
لقد انحسرت مؤقتاً، مكتفيةً بما هي عليه، لكنها لم تُنسَ أبداً،
وأنا أتوخّى الصالحَ أو الرديء، متحدثاً أمام كلّ خطر،
أتوخّى الطبيعةَ دون لجام بما تختزنه من طاقةٍ أصلية.

2

البيوتُ والغرفُ مملوءةٌ بالعطور، الرفوف مكتظةٌ بالروائح،
أتنفّس أريجَ نفسي، فأنا أعرفه وأحبّهُ.
هذا الرحيق المقطّر سيسكرني أيضاً، لكنني لن أدعَهُ يفعلُ ذلك.

الطقسُ ليس عطراً، وليس له مذاقُ الرحيق، و هو بلا رائحة،
لكنه مخلوق لفمي إلى الأبد، وأنا واقعٌ في غرامه،
سوف أذهبُ إلى الضفّة قرب الغابة وأتعرّى هناك، نازعاً أقنعتي،
فأنا أصبو لأن ألتصقَ بي.

بخارُ تنفّسي،
أصداءٌ وتموّجاتٌ وهمساتٌ رنّانة،
أصلُ الحبّ، خيطُ الحرير، الجذعُ المنشعبُ والكرمة المعترشة،
شهيقي وزفيري، خفقانُ قلبي، عبورُ الهواء والدم عبر رئتي،
شمُّ الأوراقِ الخضراء والقاحلة، شمُّ الشاطئِ
وصخورِ البحر الملوّنة بالسواد، شمّ التبن في الهري،
وقعُ الكلماتِ المقذوفة لصوتي، مُسرّحةً مع دوامات الريح،
بضعُ قبلاتٍ خفيفة، بضعُ عناقات، تشابكُ الذراعِ بالذراع،

لعبُ الظلّ والضوءِ على الأوراق حين تتمايل الأغصانُ اللينةُ،
المتعةُ وحدها، في ازدحام الشوارع أو عبر الحقول وحوافّ التلال،
الشعور بالصحّة، رعشةُ تمامِ الظهيرةِ،
أغنيتي وأنا أنهضُ من السرير وأستقبلُ الشمسَ.

هل قستَ ألف هكتارٍ بجدّيةٍ أكبر؟ هل قستَ الأرضَ؟
هل تمرّنتَ طويلاً لتتعلّم القراءة؟
هل شعرتَ بالفخر لاكتناه معنى القصائد؟

امكث هذا النهار والليل معي
وسوف تملكُ أصلَ كلّ القصائد
وتملكُ خيرَ الأرضِ والشمسِ
(ثمة الملايين من الشموس التي تُركت،)
لن تزنَ الأشياءَ، بعد الآن، بنظرة ثانيةٍ أو ثالثة،
أو تنظرَ عبر عيون الموتى،
أو تعتاشَ على الأطياف في الكتب،
ولن تنظرَ عبر عينيّ أنا أيضاً، أو تفهمَ الأشياء منّي،
سوف تصغي لكل الجهات، وتنقّيها عبر مصفاة ذاتك.

3

سمعتُ ما يتحدّثُ به المتحدّثون، حديث البداية والنهاية،
لكنني لا أتحدّث عن البداية أو النهاية.

لم يسبق أن كانت بدايةً أكثر منها الآن،
ولم يسبق أن كان شباباً أو شيخوخةً أكثر منهما الآن،
ولم يكن كمالاً أكثر منه الآن،
ولا جنةً أو جحيماً أكثر منهما الآن.
دافعٌ ودافعٌ و دافعٌ
دائماً الدافعُ التناسلي للعالم.

من سحيقِ الغموض تتقدمُ النظائرُ المتناقضة،
دائماً، جوهرٌ وكَثرةٌ، دائماً جنسٌ،
دائماً، حياكةُ هويةٍ، دائماً تميّزٌ، دائماً نسلُ حياةٍ.

لا فائدةَ من الإسهاب، المتعلّم وغير المتعلم يدرك الأمر.

متأكّداً مثل أكثر المتأكّدين، فارعاً تماماً في استقامتي،
متناسقَ البنية، مزهواً بأكثر من شعاع،
قوياً كحصانٍ، حنوناً، مغروراً، جذّاباً،
أنا وتلك الأحجية نقفُ هنا.

واضحةٌ وحلوةٌ روحي، وواضحٌ وحلوٌ كلّ ما ليس روحي.

من يفتقرُ إلى أيّهما يفتقرُ إلى كليهما،
والمرئي يبرهنُ عليه اللا مرئي،
حتى يصبحَ المرئيُ لامرئياً ويبحثَ بدوره عن برهان.

أكشفُ عن الأفضل، وأفصُلُه عن الأسوأ، عصراً وراء عصر،
مدركاً اتزان الأشياء وجاهزيتها التامّة،
وفيما هم يتناقشون، أبقى صامتاً،
وأذهبُ لأستحمّ وأتغزّلُ بنفسي.

أهلاً بكل عضو فيّ، وبكلّ صفةٍ،
وأهلاً بكل رجلٍ نظيف ومحبّ،
ما من شبرٍ، أو ذرّة من شبرٍ، وضيع القيمة،
ولاشيء سيكون أقلّ ألفةً من سواه.

أنا راضٍ - أرى، أرقصُ، أضحكُ، أغني؛
ورفيقُ فراشي العاشق والمحبّ ينام قربي طوال الليل،
وينسحبُ مع بزوغ الفجر بخطواتٍ خفيفةٍ،
تاركاً لي سلالاً مملوءةً بالمناشف البيضاء التي تتخمُ أنحاء البيت،

هل أؤجّل قبولي وإدراكي، وأزجرُ عينيّ
لأنهما تشيحان النظر عن الطريق، وما يتلو الطريق،
ومن ثمّ تُلغزان، ثمّ تدلاني على قرشٍ،
بالضبط قيمةُ واحد، وبالضبط قيمة اثنين،
وذاك الذي لم يأتِ بعد؟

4

المتنزهون والمتسائلون يحيطون بي،
أناسٌ ألتقي بهم، تأثيرُ حياتي الأولى عليّ،
الحي أو المدينة التي أعيش فيها، أو الأمّة،
آخر التواريخ، الاكتشافات، الاختراعات،
المجتمعات، والكتّاب، قديماً وحديثاً،
عشائي، ثيابي، أصحابي، نظراتي، كلمات الإطراء، واجباتي،
عدمُ الاكتراث، الحقيقي أو المتخيّل، لامرأةٍ أو رجلٍ أحبّ،
مرضُ أحدٍ من أهلي أو مرضي أنا،
أو تصرفٌ منحوس أو خسارة،
أو قلة المال، أو الاكتئاب أو الغبطة،
معارك، ورعبُ الحروب الأخوية،
وحمّى الأنباء المريبة، والأحداث المتقطّعة؛

هذه تأتي إليّ ليلَ نهار، وتتركني مرةً أخرى،
لكنها ليست ذاتي نفسها.

بعيداً عن الشدّ والسّحب، يقفُ هذا الذي أنا،
يقفُ مفتوناً، راضياً، متعاطفاً، عاطلاً، منسجماً،
ينظرُ إلى الأسفل، مشدودَ القامة، أو يحني ذراعاً
فوق راحةٍ ما غير ملموسة،
ناظراً، برأسٍ مائلة قليلاً، يترقّب بفضول ما سيحدث لاحقاً،
داخل وخارج اللعبة في آن، مراقباً ومتعجباً لها.

مسترجعاً الماضي، أرى أيامي نفسها،
كيف تصببتُ عرقاً في الضباب مع اللغويين والمنافسين،
أنا لا أتهكّم أو أجادلُ،
أنا أراقبُ وأنتظرُ فحسب.

5

أؤمن بكِ يا روحي، والآخر منّي يجب أن لا يكون عبداً لكِ،
ويجب أن لا تكوني عبداً للآخر.

هِم معي على العشب، زِل الحشرجةَ من حنجرتك،

لا الكلمات، لا الموسيقى أو القافية ما أريدُ،
لا العُرف أو المحاضرة، لا بل ليس الأفضل بينها،
الهدهدةُ فقط ما أحبّ، رنيمُ صوتكَ المخملي.

أتذكّر كيف أننا تمدّدنا معاً ذات صباح صيفي شفّاف،
وأرحتَ رأسكَ على وركي وبلطفٍ استدرتَ فوقي،
وفتحتَ قميصي كاشفاً عن عظام صدري،
وأعملتَ لسانكَ في قلبي المكشوف في عريه،
وغرتَ حتى رحتَ تتلمّسُ لحيتي، وغرتَ حتى رفعتَ ساقي.

سريعاً انبثقَ وانتشرَ حولي سلامٌ ومعرفةٌ
تتجاوز جميع نقاشات الأرض،
وعرفتُ أن يدَ الله هي وعدٌ ليدي،
وعرفتُ أن روح الله هي أختٌ لروحي،
وأنّ جميع الناس الذين ولدوا
هم أيضاً أخوتي، والنساء أخواتي وحبيباتي،
وأنّ مركز الكون هو الحبّ،
وأن تلك الأوراق المنتصبة أو الذابلة في الحقول لانهائية،
وذلك النملُ في الآبار الصغيرة لانهائي،

وكذلك جَرَبُ الطحالب على سياج الدود، والحجارة المكومة،
ونباتُ البلسان، والقطن، وعنبُ الذئب.

6

طفلٌ قال: "ما العشب؟" وقد أحضرَ منه ملءَ يديه؛
كيف يمكنني أن أجيبَ الطفلَ؟
لا أعرفُ ما العشب أكثر مما يعرف هو.

أخمّنُ أنه راية مزاجي، منسوجاً من مادةٍ خضراء بهيجة.

أو أظنّ أنه منديلُ الربّ،
هديةً معطرة، وتذكاراً رُمي عمداً،
حاملاً اسمَ مالكِه في مكانٍ ما على حوافّه،
بحيث يمكننا أن نرى ونلاحظ، ونقول: "لمن؟"

أو أظنّ أن العشب نفسه هو الطفل،
الرضيع المولود من الاخضرار.

أو أخمّن أنه أبجدية هيروغليفية موحّدة،
"طلوعُ الزرع" في مناطق ضيقة وأخرى واسعة،
بين بشرٍ سود، وبشرٍ بيض على حدّ سواء.

"كانوك" "تاكاهو،" "كونغرس مان،" "زنجي،"
أمنحهم الشيءَ نفسَه، وأستقبلُهم بنفس السوية.

والآن يبدو لي [العشبُ] الشَعرَ الجميلَ غير المقصوص للقبور.

بحنانٍ أتناولكَ أيها العشب الملتفّ،
ربما بزغتَ من صدور الشبّان اليافعين،
ربما كنتُ سأقعُ في غرامهم لو أنني عرفتهم،
وربما كنتَ من كبار السنّ، أو من نسلٍ رُضّعٍ
انتُزِعوا سريعاً من أحضان أمهاتهم،
وأنت هنا تمثّلُ أحضان الأمّهات.

هذا العشبُ قاتم جداً
ولم يبزغ من الرؤوس البيضاء لأمهات هرمات،
وهو أكثر دكنةً من اللحى التي بلا لونٍ للرجال المسنين،
داكنٌ كأنّما لا يأتي من تحت السقوف الحمراء الغامقة للأفواه.

أوه، أكاد أرى العديدَ من الألسنة الناطقة،
وأدركُ أنها لم تأت من سقوف الأفواه عبثاً.

أودّ لو أستطيع أن أترجمَ الإشارات

عن الفتيان الموتى والفتيات الأموات،
والإشارات عن الأمهات العجائز والرجال العجائز،
ونسلهم المخطوف سريعاً من أحضانهم.

ما الذي تظنّ حلّ بالمسنين واليافعين؟
وما الذي تظنّ حلّ بالأطفال والنساء؟

إنهم أحياء، وبحالٍ حسن في مكان ما،
فأصغرُ زَغبٍ لسنبلة دليلٌ أنه لا يوجد حقاً موتٌ،
وإن كان ثمة من موتٍ
فإنما لكي يدفع الحياة قدماً،
ولا ينتظر في آخر النهاية لاعتقالها،
بل ينتهي في اللحظة التي تبدأُ فيها الحياة.

كل شيءٍ يندفعُ إلى الأمام، ولا شيءَ ينهار،
فأن تموتَ أمرٌ مختلفٌ عن كلّ ما يظنّهُ الجميعُ، وأحلى.

7

هل حسبَ أحدٌ أنه من حسن الطالع أن يولد؟
أسارعُ و أخبره أنه من حسن الطالع أيضاً
أن يموت، وأنا أعرف ذلك.

أعبرُ الموتَ مع الموتى، والولادةَ مع الرضّع،
وأنا لستُ محتوىً بين قبّعتي وحذائي،
أتملّى الكثرةَ من الأشياء، وليس بينها اثنان متشابهان،
فالكلّ صالح، الأرضُ صالحة،
والنجوم صالحة، وكل ما يدور حولها صالحٌ.

أنا لستُ أرضاً ولستُ نيزكاً تابعاً للأرض.
أنا الصديقُ والصاحبُ للبشر، والكلّ خالدٌ وعميقٌ
ولا يمكن سبر غوره مثل نفسي،
(هؤلاء لا يعلمون كم هم خالدون، لكنني أعلم.)

كل نوعٍ من أجل ذاته ولذاته،
أما أنا، فمن أجلي الأنثى والذكَر،
ومن أجلي، أولئك الصبيان الذين يحبون البنات،
ومن أجلي، ذلك الرجل الفخور
الذي يشعر بالعار إذا أُقصيَ أحدٌ ما،
من أجلي الحبيبة والمتصابية العجوز،
ومن أجلي الأمهات وأمهات الأمهات،
من أجلي الشفاه التي ابتسمت،

والعيون التي ذرفت دموعاً،
ومن أجلي الأطفال ومنجبي الأطفال.

أتخلعُ ثوبكَ!
لستَ مذنباً بحقي،
ولستَ مُهمَلاً أو معزولاً،
أرى من خلال الثوب والنسيج القطني
وأقرّر إن كان ذلك صحيحاً أم لا،
وأنا هنا، عنيدٌ، اكتسابيّ، لا أعرفُ التعبَ،
ولا يمكن زحزحتي.

8

الطفلُ الصغير ينامُ في سريره،
أرفعُ الملاءةَ وأنظرُ لوقت طويل،
صامتاً أطردُ الذبابَ بيدي،

الفتى وصاحبةُ الوجه المتورّد
ينعطفان صوب التلّ المشجّر،
وأنا على القمة أراقبهما بشغف.

المنتحرُ يزحفُ على الرخام الملطخ بالدم لغرفة النوم،
أرى الجثةَ بشعرها المبلّل، وألحظُ أين وقع المسدّس.

ثرثرةُ الرصيف، الإطاراتُ المطاطية للعربات، حفيف ربطة الحذاء،
هذَرُ المتنزهين، الحافلةُ الثقيلة، السائقُ بإبهامه المستجوبة،
وقعُ حوافر الخيول المتعلة على الأرض الغرانيتية،
زحّافاتُ ثلجٍ، صريرٌ، نكاتٌ بصوت عالٍ، تراشقٌ بكرات الثلج،
صيحاتٌ تشجّعُ أبطالاً مفضّلين، مشهورين،
غضبُ العصابة المستثارة،
قعقعةُ النقّالة ذات الستائر، حيث الرجل المريض في الداخل
يُحمل إلى إحدى المستشفيات،
لقاءُ الأعداء، القَسَمُ المفاجئ، الضرباتُ ثمّ السقوطُ صرعى،
الحشدُ المغتبط، رجلُ البوليس بنجمته الوحيدة يشقّ طريقاً
وسط الحشد،
الحجارةُ الصمّاء التي تمتصّ الضجةَ ثمّ تُرسل أصداءً كثيرة،
أيّ أنينٍ للمصابين بالتخمة أو لأنصافِ المتضورين جوعاً
ممن يسقطون بضربة شمس أو جراء نوبات الصرع،
أيّ تعجّبٍ لنسوةٍ مأخوذات على حين غرّة، يسرعن

إلى بيوتهنّ ليلدن أطفالهنّ،
أيّ كلامٍ حيّ أو مدفونٍ يتذبذبُ هنا باستمرار،
أيةُ صرخاتٍ مكبوتةٍ توخياً للكياسة،
اعتقالُ المجرمين، والمنبوذين،
عروضُ الفسق المقدّمة، والقبولُ،
ثمّ الرفضُ بشفاهٍ مشدودة،
أنتبهُ لكل هؤلاء، أو لتمظهر جلَبَتهم -
أجيءُ ثمّ أمضي.

9

الأبوابُ الضخمةُ لمخزن القرية مفتوحةٌ على مصراعيها وجاهزة،
العشبُ المجفّف لموسم الحصاد يملأ العربةَ التي تُسحَبُ ببطءٍ،
الضوءُ النقيّ يتراقصُ فوق تناغم الرّمادي مع الأخضر،
أحضانُ الزرعِ المربوطة في طريقها إلى مخزن التبن.

أنا هنا، أساعدُ، وأجيءُ ممداً فوق حِملِ الزرعِ،
أشعرُ تكسّره الناعم تحتي، وأنا أضع ساقاً فوق أخرى،

أقفزُ من الأشعة المتصالبة وأحضنُ البرسيمَ وعصويةَ المروج،
وأتدحرجُ رأساً على عقب، شَعري مملوءاً بحسَك القشّ.

10

وحدي، بعيداً في البراري والجبال، أخرجُ للصيد،
أهيمُ على وجهي، دهِشاً لخفّتي وفتوتي،
وفي آخر المساء، أختارُ بقعةً آمنةً، أُمضي فيها الليلَ،
أُشعلُ النارَ وأشوي الطريدةَ المقتولة حديثاً،
ثمّ أخلدُ للنوم فوق الأوراق المكوّمة،
كلبي وبندقيتي إلى جانبي.

تلك سفينة اليانكي، تحت أشرعتها السماوية،
إنها تقطعُ التلألؤَ والهبوبَ،
عيناي تهدّئان ارتجاج اليابسة، أنحني على المقدمة،
أو أصرخ فرحاً على ظهر السفينة.

البحّارة، والباحثون عن الأصداف، استيقظوا باكراً،
وتوقفوا من أجلي،
أخفيتُ نهايات بنطلوني داخل حذائي،
وذهبتُ، وأمضيتُ وقتاً طيباً.
كان يجب أن تكون معنا في ذلك اليوم
حول مرجل حساء السمك.

شاهدتُ زواجَ الشرّاك في الهواء الطلق، أقصى الغرب،
كانت العروسُ فتاةً من الهنود الحمر،
جلس أبوها مع أصدقائه،
وهم جلسوا متلاصقين، متصالبي الأرجل،
يدخّنون بصمت، تغطي أقدامهم أحذيةٌ من الجلد الناعم،
فيما قماش سميك يتدلّى على أكتافهم.
على الضفّة جلس الشرّاكُ،
لم يكن يرتدي ثياباً سوى الجلود تقريباً،
لحيتُه الكثّةُ وخصلاتُ شعره تحمي رقبتَه،
كان يمسكُ بيدِ عروسه،
رموشُها طويلة، ورأسها سافرة،
خصلاتُ شعرها الخشنة والسابحة
تنسدلُ فوق عضلاتها الشهوانية، وتصلُ حتى كعبها.

العبدُ الهاربُ أتى إلى بيتي وانتظرَ في الخارج،
سمعتُ جلبةَ قدميه وهي تدهسُ أعوادَ كومة الحطب،
ومن شقّ باب المطبخ نصف المفتوح رأيتهُ هزيلاً ومتعباً،
خرجتُ إليه، إلى حيث كان يجلسُ على الحطب،

ورافقته إلى الداخل، وهدأتُ من روعه،
أحضرتُ ماءً وملأتُ المغطسَ لجسده المتعرّق
وقدميه المبرّحتين،
وأفردتُ له غرفةً بجوار غرفتي،
وأعطيته بعض الثياب النظيفة،
أتذكّر جيداً عينيه الزائغتين وتململه،
وأتذكّر كيف وضعتُ الضمادات
على جروح رقبته وكاحليه،
ومكث معي أسبوعاً كاملاً قبل أن يتعافى ويتوجّه شمالاً،
جعلته يجلسُ بقربي على الطاولة،
فيما مفتاح ناري مرميٌّ في الزاوية.

11

ثمانية وعشرون يافعاً يستحمّون على الشاطئ،
ثمانية وعشرون يافعاً، وجميعهم ودودين؛
ثمانية وعشرون عاماً من الحياة النسائية، وجميعهم وحيدين.

إنها تملكُ البيتَ الفاخر عند ارتفاع الضفّة،
تختبئُ جميلةً، وفي أبهى ثيابها، خلف ستائر النافذة.

أيّ من الشبّان تفضّل؟

أوه، الأكثر بساطةً بينهم جميلٌ بالنسبة لها.

من أجل ماذا كنتِ غائبةً أيتها السيدة؟ إني أراكِ،

تستحمّين في الماء هناك، ومع ذلك تقبعين هادئةً في غرفتكِ.

راقصةً وضاحكةً عبر الشاطئ،

تأتي المستحمّةُ التاسعةُ والعشرون،

لم يرها الباقون، لكنها كانت تراهم وتتلذّذ بهم.

لحى الفتيان تتلألأ بالبلل الذي ينسربُ من شعرهم الطويل،

مسيلاتٌ صغيرة تنحدر من أنحاءِ أجسادهم كافّة.

يدٌ لا مرئية تُمرّر أيضاً فوق أجسادهم،

إنها تنحدرُ مرتعشةً من صدوغهم وأضلاعهم.

الفتيانُ يطفون على ظهورهم،

بطونهم الناصعة تلمعُ في الشمس،

لا يسألون عمّن ينجذبُ إليهم،

ولا يعرفون من يتنهّدُ - ثم يكبتُ - بقوسٍ مرتخية أو مشدودة،

و لا يفكّرون بالذي يبللّونه بالرذاذ.

12

صبيّ الجزّار يخلعُ ثيابَ الذبح، أو يشحذُ سكّينه
فوق الطاولة في السوق،
أنظرُ إليه، مأخوذاً بسرعة بديهته، بخفّة رقصته وتمايله.

الحدّادون، بصدورٍ مُشعِرة ووسخةٍ، يحيطون بالسندان
لكلّ مزلجته الرئيسية، والجميعُ في الخارج،
ثمة حرارة هائلة في قلب النار.

من العتبة المغطاة بنفايات الفلز أتبعُ حركاتهم،
الليونةُ المطلقةُ لخصورهم تسندُ قوةَ أذرعِهم الضخمة،
فوق الرأس تميلُ المطارق،
فوق الرأس بطيئةً جداً،
فوق الرأس مطمئنةً جداً،
ليسوا في عجلة من أمرهم،
كلّ يهوي بمطرقته فوق بقعةٍ محدّدة.

13

بقوّةٍ يمسكُ الزنجي رسنَ خيوله الأربعة،
يتزحزح الإسفين في الأسفل، مربوطاً إلى سلسلة،

الزنجي يجرّ الكرّاجة الطويلة في الباحة الحجرية،
ثابتاً وباسقاً يقف على ساق واحدة،
فوق قطعة الخشب المربّعة،
قميصه الأزرق، الذي يفضحُ رقبتَه البدينة وصدرَه العريض،
ينسدلُ فوق وركه،
نظرتُه هادئةٌ وآمرة، يزيحُ رفراف قبعتّه عن جبهته،
تهبطُ الشمسُ على شعره وشاربيه المزيتين،
تهبطُ على سوادِ عضلاته المصقولة والمنحوتة بإتقان.

أراقبُ العملاقَ الفاتن وأحبّه، ولا أتوقّف هناك،
أمضي مع الماضين أيضاً.

في داخلي يتحرك لطفُ الحياة حيثما أحلّ،
متموّجاً في الذهاب كما في الإياب،
خارجَ أي محرابٍ، وفي الحناءةِ المراهقة،
لا يفوتني شيءٌ أو شخصٌ،
أتمثّلُ الكلّ في نفسي، من أجل هذه الأغنية.

أيتها الثيران التي تنوءُ تحت النير والقيد،
أو تتوقّف في الظل الوارف،

ما الذي تفصحُ عنه نظراتك؟

يبدو لي أنه يتجاوز كلّ الكتب التي قرأتها في حياتي.

خطوتي تجفّل ذكَرَ وأنثى البط في الغابة

في تسكّعي البعيد طوال النهار،

إنهما ينهضان معاً، يدوران بطيئين في حلقة.

أؤمن بتلك الغابات المجنّحة،

وأتحسّس الأحمرَ والأصفرَ والأبيضَ

وهي تتراقصُ في داخلي،

وأعتبرُ الأخضرَ والبنفسجيّ والإكليلَ التاجي أشياءَ متعمّدة،

ولا أقول إن السلحفاة لا قيمة لها لأنها ليست شيئاً آخر،

وطائر الزرياب في الغابات لم يدرس أبداً سلّم النَغم،

لكنّه يصدح بألحان عذبة من أجلي،

ومرأى الفرَس الكستنائية يطردُ كلّ حماقةٍ من نفسي.

14

ذكر الإوز البرّي يقودُ سربَه عبر الليل البارد،

يوقّعُ هديلَه كمن يرسلُ لي دعوةً،

قد يظنها سليطُ اللسان بلا معنى،

لكنني، وأنا أصغي ملياً،
أكتشفُ فحوى الرسالة،
عاليةً هناك، تصبو إلى السماء الشتوية.

ثورُ الموظ الشمالي بحوافره الصلدة،
القطّة فوق سقف البيت،
طائر القرقف، ثعلبُ البراري،
أنثى الخنزير المغمغمة مع جرائها التي تلتصقُ بأثدائها،
صيصانُ أنثى الديك الرومي،
والأمّ بجناحيها نصف المبسوطين،
أرى في هؤلاء جميعاً، وفي نفسي، القانونَ القديمَ نفسَه.

دمغةُ قدمي على الأرض تولّد مئات العواطف،
العواطفُ التي تهزأ بقدرتي على تصنيف أهوائها.

أنا متيمٌ بالفسحة الرحبة للهواء الطلق،
بالرجال الذين يعيشون بين الماشية،
بطعمِ المحيط أو الغابات،
بالبنّائين وقباطنة السفن،
بمطوّعي الفؤوس والمطارق،

وبسائسي الخيل،
أستطيع أن آكل وأنام معهم أسبوعاً وراء أسبوع.

أنا الأكثر ألفةً، الأقرب، الأيسر، والأكثر سخاءً،
أنا، الباحثُ عن حظوظي،
المنفق، في سبيل ربحٍ وفير،
أزيّنُ نفسي لكي أهبَ نفسي لأوّل من يطلبني،
غير سائلٍ السماءَ أن تدنو لتلبّي نيتي الحسنة،
إنها نفسي، أبعثرها، دون مقابل، إلى الأبد.

15

المغنية بصوتها الكونترالتو الصرف
وهي تغنّي في قاعة الأرغن،
النجّار وهو يزّينُ لوحَه الخشبي،
فيما لسانُ إزميلِه يصفرُ صفرتَه الوحشيةَ الصّاعدة،
الأولادُ المتزوجون وغير المتزوجين
وهم يتوجّهون إلى عشاء (عيد الشكر)،
القبطان وهو يُمسكُ بأطراف مجدافه،
ويرخي بثقله على ساعده القوي،

البحّار وهو يقفُ منتصباً في قارب الحيتان،

السهم والحربة جاهزان في يده،

صيّاد الإوزّ وهو يمشي بخطوات صامتة وحذرة،

شمّاسو الكنيسة وهم يُقلّدون مناصبهم،

بأيدٍ ترسمُ شارات الصليب أمام المذبح،

فتاةُ المغزل وهي تبتعدُ ثمّ تقتربُ

من نشيجِ العجلة العملاقة،

المزارعُ وهو يتوقف قرب مخزن التبن

في إحدى نزهات اليوم الأول،

ويتأمّلُ الجاودارَ والشوفان،

المجنونُ وهو يُنقَل أخيراً إلى المصحّ كحالة مؤكّدة،

(لن ينام أبداً كما تعوّد أن يفعل،

على فراشٍ في غرفة نوم والدته؛)

منضّدُ الحروف، بشعره الأشيب وذقنه الهزيلة،

وهو ينكبّ على صندوقه،

ويديرُ مضغة تبغٍ في فمه،

فيما عيناه تزوغان على المخطوطة؛

الأطرافُ المشوّهة مربوطةً إلى طاولة الجرّاح،

وما يُستأصل منها يسقطُ في سطلٍ يثيرُ الهلع ؛
الفتاة الخلاسية وهي تُباع وراء طاولة المزاد ،
والرجل الثملُ وهو يومئ بيديه خلف مدفأة البار ،
الميكانيكي وهو يشمّر عن أكمامه ،
والشرطيّ وهو ينفّذُ نوبةَ حراسته ،
وحارسُ البوابة وهو يراقب من يمرّ ،
الفتى اليافع وهو يقود عربتَه السريعة
(أحبّه ، بالرغم من أنني لا أعرفه ؛)
الخلاسيّ وهو يشدّ خيطان جزمته الخفيفة
لكي ينافسَ في السباق ،
رميُ الديكةِ الرومية بالرصاص في الغرب
مستقطباً الطفلَ والشيخ :
البعضُ يتكئ على بندقيته ،
والبعض الآخر يجلس على الجذوع المقطوعة.
من قلب الحشد يخرجُ حكَمُ الخطّ ،
يأخذُ موضعَه ، ويسوّي قطعتَه ؛
مجموعات المهاجرين الجدد
الذين تكتظّ بهم أرصفة الميناء ؛

وحيث الأجُراءُ المتدثّرون بالصّوف يعزقون حقول السكّر،
ينتصبُ المشرفُ العام فوق سرج حصانه، يراقبهم؛
البوقُ، وهو يدعو الجميع إلى غرفة الرقص،
حيث كل شريكٍ يهرعُ إلى شريكه،
وينحني الراقصون أمام بعضهم البعض؛
المراهق وهو يسهرُ في كوخه المسقوف بأخشاب الأرز
منصتاً لموسيقى المطر؛
ابن مدينة ميتشغان وهو ينصبُ الفخاخ في الدغل،
المرأة الهندية المتلفعة بشالها الأصفر وهي تعرض الأحذيةَ
وحقائب مملوءة بخرز الكهرمان،
خبيرُ الفنّ وهو يتجول في معرض اللوحات
بعينين، نصف مغلقتين، تنظران باتجاهٍ آخر.
وحيث تثبّتُ أيدي البحّارة جسمَ القارب،
يُمدّ لوحٌ خشبي لعبور مرتادي الشاطئ.
الأختُ الصغرى وهي تمسكُ خصلةَ الخيوط
في حين تغزلها الكبرى على شكل كرة،
متوقفةً بين الحين والآخر لحلّ العُقَد.
المرأة المتزوجة منذ عام تتماثلُ للشفاء،

سعيدةً بأنها وضعت وليدها الأول قبل أسبوع،
فتاة اليانكي ذات الشعر النظيف وهي تعملُ على آلة الحياكة،
في المصنع أو الطاحونة؛
متسكع الرصيف وهو يتكئ على عكازه ذي القبضتين،
افتتاحيةُ المراسل وهي تطير بسرعة إلى دفتر الملاحظات،
رسّام الإشارات وهو يلون الحروف بالأزرق والذهبي،
صبي القناة وهو يترنّح ماشياً فوق حبل مشدود؛ سادن المكتبة
وهو يحصي النقود خلف طاولته؛
الإسكافي وهو يصقلُ خيطانه بالشمع؛
قائد الأوركسترا وهو يضبط الوقت للفرقة
وجميع العازفين يطيعونه؛
الطفلُ وهو يُعمّد، والمنتسب للدين حديثاً
وهو يؤدي شعائرَه الأولى،
الزوارق وقد انتشرت على الميناء، والسباق وقد بدأ،
(يا للأشرعة البيضاء وهي تلمعُ!)
راعي الماشية وهو يسهر على ماشيته
ويغني لتلك القطعان التي ضلّت طريقَها،
البائع الجوال وهو يتصبب عرقاً وحِمله فوق ظهره،

(والشاري وهو يجادلُ من أجل فلس واحد ؛)
العروس وهي تفردُ فستانها الأبيض،
وعقرب الساعة وهو يتحرّك بطيئاً،
متعاطي الأفيون وهو يستلقي إلى الخلف
برأسٍ صلد وشفتين مفتوحتين قليلاً،
العاهرة وهي تجرّ شالها خلفها،
قلنسوتها تميل فوق رقبتها الثملة والمنقّطة بالبثور؛
الحشدُ وهو يضحك على سبابها البذيء،
والرجال وهم يتصايحون ويتغامزون فيما بينهم،
(أيتها البائسة! أنا لا أضحك على شتائمكِ، ولا أسخرُ منكِ؛)
الرئيسُ وهو يعقد اجتماعاً لحكومته،
محاطاً بمستشاريه العظام.
في الرواق المقنطر تمشي ثلاث مربيات مسنات
مشيةَ ودّ ونبالة وأذرعهنّ متشابكة.
طاقم قارب الصيد من البحارة
وهم يرتبّون طبقات متكررة من سمك الهلبوط في سلالهم،
الرجل من ولاية ميسوري وهو يعبر السهول
حاملاً أسلاكه وماشيته،

وفيما يمشي الجابي عبر القطار، يعلنُ عن مَقدمه
بخشخشة النقود في راحته؛
الرخّامون وهم يرصفون الرخام،
والصفّاحون وهم يصفّحون السقف،
البنّاؤون وهم يصيحون مطالبين بالملاط،
العمال وهم يقفون في رتل واحد،
كل يحملُ سطلَه بيده، مندفعين إلى الأمام؛
الفصول وهي تلاحقُ بعضها بعضاً،
والجمهور الذي لا يوصف وهو يتجمّع،
إنه اليوم الرابع من الشهر السابع [عيد الاستقلال]
(أية طلقاتٍ مدفعية وأسلحة خفيفة!)
الفصول وهي تطارد بعضها بعضاً،
والفلاح وهو يحرثُ،
والحصّاد وهو يحصدُ،
وحبوب الشتاء وهي تُسفَح على الأرض.
بعيداً، قرب البحيرات، يتأهّب حاملُ الرمح للانقضاض،
منتظراً قرب فتحةٍ على السطح المتجمّد؛
الجذوع المقطوعة وهي تنهض كثيفةً حول الفسحة،

والحطّاب وهو يضرب عميقاً بفأسه،
بحّارة المركب وهم يسرعون باتجاه الغسق
قرب غابة القطن أو شجر الجوز،
الباحثون عن حيوان الراكون وهم يجوبون أنحاء النهر الأحمر،
أو تلك المناطق المجففة في تينيسي أو تلك المنتشرة في أركنسا؛
الآباء وهم يجلسون للعشاء
مع الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد؛
وعند جدران الأكواخ أو تحت خيام القنب،
يستريح الصيادون والشرّاكون، بعد انقضاء يوم من التسلية،
المدينة التي تنام والريف الذي ينام،
الأحياء الذين ينامون نومهم،
والأموات الذين ينامون نومهم،
الزوج العجوز وهو ينام قرب زوجته
والزوج اليافع وهو ينام قرب زوجته ...

هؤلاء جميعاً ينحون صوبي وأنا أنحو صوبَهم،
وذاتي مكونةٌ، قليلاً أو كثيراً، من هؤلاء،
ومن هذا الواحد وهذا الكلّ أنسجُ أغنيةَ نفسي.

16

أنتمي للعجائز والشبان، للحمقى والحكماء،

ومهما كان شأن الآخرين، أحترمُ الآخرين دائماً،

الآباء والأمهات على حد سواء، الطفل والبالغ أيضاً،

مصنوعٌ أنا من المادة الخشنة ومصنوعٌ أيضاً من المادة الناعمة،

واحدٌ من أمة مؤلفة من أمم كثيرة،

أكبرها مثل أصغرها، لا فرق،

جنوبيّ أنا وشماليّ أيضاً،

مزارع رابط الجأش وكريم

وفي بلدة "أوكوني" أعيش،

يانكيّ بالفطرة، وطريقي جاهزة للتجارة،

مفاصلي أكثر المفاصل رشاقةً على الأرض،

وأقسى المفاصل على الأرض،

كينتاكيّ أنا، أمشي في وادي إلكهورن،

مسربلاً بجلد الوعول، وأنا من لويزيانا أو جورجيا،

بحّار قوارب فوق البحيرات،

أو الخلجان أو السواحل الطويلة،

وأنا من إنديانا أو ويسكاونسين أو أوهايو.

متنعلاً حذاء ثلج كندي، أو واقفاً هناك في أعلى الدغل،
أشعرُ أنني في بيتي،
وفي بيتي مع الصيادين قبالة سواحل نيوفاوند لاند،
في بيتي وأنا أرافقُ أسطول قوارب الجليد، مبحراً مع الجميع،
في بيتي على هضاب فيرمونت أو في غابات مين، أو مزارع تكساس،
رفيق الناس في كاليفورنيا، ورفيق الناس في الغرب الشمالي الحرّ،
(كم أعشق تناسقَهم الشاسع،)
رفيقُ الرمّائين وعمال المناجم، ورفيق كل من يصافح يداً
ويدعوها إلى جلسة شربٍ ولحم،
متعلّمٌ مع الأكثر بساطةً، ومعلّم للأكثر خشونةً،
هاوٍ أبدأُ أبداً، لكنني مجرّبٌ خبَرَ تقلبات الفصول؛
من كل لون وطبقة أنا، من كل مرتبة ودين،
مزارع، وميكانيكي، وفنان، ونبيل، وبحار، وصوفي،
وسجين، وحالم، ومشاكس، ومحام، وطبيب، وكاهن.

أرفض أي شيء يتجاوزُ تعدّديتي،
أتنشّقُ الهواءَ، لكنني أترك الكثير منه لغيري،

وأنا لستُ ساكناً، لكنني راسخٌ في مكاني.

(العُثّةُ وبيوض السمك في مكانها،
الشموس المضيئة التي أراها
والشموس المظلمة التي لا أراها
هي أيضاً في مكانها،

الملموس في مكانه وغير الملموس أيضاً في مكانه.)

17

هذه حقاً أفكار الناس جميعاً في كل الأزمنة والأمكنة،
وهي لم تولد معي في الأصل،
فإذا لم تكن لك كما هي لي، فهي لاشيء،
أو ما يقاربُ اللا شيء،
وإذا لم تكن اللغز وحلّ اللغز فهي لا شيء،
وإذا لم تكن قريبة تماماً مثلما هي بعيدة فهي لا شيء.

هذا هو العشب الذي ينمو حيث تكون أرضٌ ويكون ماءٌ،
وهذا هو الهواءُ المشَاعُ الذي يغسلُ المعمورةَ.

18

مع موسيقى قوية أجيء، مصطحباً أبواقي وطبولي،
لا أعزفُ الأناشيد العسكرية للمنتصرين فحسب،
بل أعزفها للمهزومين والقتلى أيضاً.

هل بلَغَكَ أنه لأمرٌ حسنٌ أن تفوزَ بالنهار؟
لكنني أقول أيضاً إنه لأمرٌ حسنٌ أن تهوي،
فالمعارك تُخسَر بنفس الروح التي تُربَح فيها.

أدقّ وأعزفُ من أجل الموتى،
وأنفخُ أعلى ألحاني وأكثرها حبوراً من أجلهم.

طوبى لأولئك الذين سقطوا!
ولأولئك الذين غرقت قواربهم الحربية في البحر!
ولأولئك الذين غرقوا أنفسهم في البحر!
ولكل الجنرالات الذين خسروا معاركهم،
ولكل الأبطال المهزومين!
طوبى للأبطال المجهولين الذين لا يقلون شأناً
عن أعظم الأبطال المشهورين!

19

هذه هي المائدة، مهيأة بالتساوي للجميع،
هذا هو اللحمُ للجوع الطبيعي،
إنه من أجل الأشرار كما هو للأخيار،
وأنا على موعد مع الجميع،
ولن أستثني أحداً،
المرأةُ السجينةُ، والطفيليُ، واللصّ، جميعهم مدعوون،
العبدُ ذو الشفتين الغليظتين مدعوٌّ، والمصاب بالسفلِس مدعوٌّ،
ولن يكون هناك فرق بينهم وبين البقية.

هذه ضغطةُ يدٍ خجولة، هذه رائحةُ وانسكابُ الشَعر،
هذه ملامسةُ شفتيّ لشفتيك، وتلك تمتماتُ الشوق،
هذان هما، العمقُ والعلوّ، الشاهقان اللذان يعكسان وجهي،
وهذا هو التوحّد المتأمّل لنفسي، وإطلاق سراحها من جديد.

هل تظنّ أنني أخفي غايةً غامضةً؟
أجل أخفي، لأنّ أمطار الشهر الرابع تخفي،
ونثارُ الزجاج قرب الصخرة يخفي.

وهل تظنّ أنني سأُدهِشُ؟

هل يدهشنا ضوءُ النهار؟ وهل يدهشنا طائر الحميراء
وهو يغرّدُ في الغابات؟
وهل أدهشُ أكثر مما تُدهش هذه جميعاً؟

هذه الساعة سوف أسرّ بالأشياء،
ربما لن أبوحَ بها للجميع، لكنني سأبوحُ بها لك.

20

من يذهب إلى هناك؟ تواقاً، صوفياً، فجاً، عارياً،
كيف أستمدّ القوةَ من اللحم الذي أتناوله؟

ما الإنسانُ، على أي حال؟ ما أنا؟ ما أنتَ؟

كل ما أعتبره لي، سوف تعادلُه بما هو لكَ،
ماعدا ذلك، الإصغاءُ لي هدرٌ للوقت.

لا أستنشقُ ما يمكن أن يستنفدَ العالم،
لن أقول إن الشهور خواءٌ
والأرض انحطاط وقذارة.

أنشجُ وأذعن لمساحيق معدّة للمستضعفين،
حيث الالتزام يعادل البعد الرابع للأشياء،

أرتدي قبعتي كما يحلو لي، في الداخل أو الخارج.

لماذا يجب علي أن أصلي؟
لماذا عليّ أن أقدّسَ، محاطاً بالشعائر؟

ولأنني استقصيتُ الخلايا، وحلّلتُها شَعرةً شعرةً،
واستشرتُ الأطباءَ، وأجريتُ حساباتي الدقيقة،
لا أجدُ دهوناً أحلى من تلك التي تلتصق بعظامي.

في الناس جميعاً أرى نفسي، لا أنقص عنهم
ولا أزيد عنهم بحبّة شعيرٍ واحدة،
والسيئ أو الصالح الذي أقولُه عن نفسي أقوله عنهم.

أعرف أنني صلبٌ ومتينٌ،
إليّ تتقاطر أشياءُ الكون وتجري أبداً،
كلّ شيء كُتِب من أجلي، وعليّ تأويلُ معنى الكتابة.

أعرف أنني غيرُ قابلٍ للموت،
أعرف أن مداري هذا لا يمكن أن تحيط به
بوصلةُ النجّار،
أعرف أنني لن أمرّ مثل تهويمات طفل

مرسومة بعصاً محروقة في الليل.

أعرف أنني جليلٌ،
وأنني لا أرهقُ روحي كي تدافعَ عن نفسها
من أجل أن تُفهَم،
أرى أن القوانين الأولية لا تعتذرُ أبداً،
(وأحسبُ أنني لا أتعالى على العلوّ
الذي بنيتُ بيتي فيه، على أي حال.)

أوجَدُ كما أنا، وهذا كافٍ.
وإذا لم يدرك أحدٌ آخر في الكون هذه الحقيقة، أجلسُ راضياً،
وإذا كان الجميع، وكل امرئٍ، يدركها، أجلسُ راضياً.

عالَمٌ واحدٌ يدركُ، وهو أرحب العوالم بالنسبة لي،
وذاك هو نفسي،
وسواء وصلتُ إلى ذاتي اليوم
أو بعد عشرة آلاف أو عشرة ملايين سنة،
أستطيع بكل حبور أن أتلقّاها الآن،
أو بحبور موازٍ أنتظر.

موطئُ قدمي منغرزٌ ومنزرعٌ في الغرانيت،

وأسخرُ مما تسمّيه التلاشي،

وأعرفُ اتساعَ الوقت.

21

أنا شاعرُ الجسد، وأنا شاعر الروح،

متعُ الجنّة معي، وآلام الجحيم معي،

الأولى أضمّها وأخلعها على نفسي،

والثانية أترجمها إلى لسانٍ جديد.

أنا شاعرُ المرأةِ مثلما أنا شاعر الرجل،

وأقول عظيمٌ أن تكون امرأةً، وعظيمٌ أن تكون رجلاً،

وأقول لا يوجد شيء أعظم من أمّ الناس.

أنشدُ نشيدَ الاستمرار والفخر،

إذ كفانا تملّصاً وانتقاصاً،

وأنا أُريكم أن الحجمَ ليس سوى التطوّر.

هل تفوّقتَ على البقية؟ هل أنتَ الرئيس؟

هذا لا يهمّ، إنهم سيصلون إلى هناك، وأكثر،

والجميع سوف يستمرّ في العبور.

أنا هو من يمشي مع الليل الحنون والممتدّ،

أنادي الأرضَ والبحرَ اللذين يضمّهما الليلُ.

اضغط أكثر أيها الليلُ العاري الصدر - اضغط أكثر

أيها الليلُ المنعشُ الجذّاب!

يا ليلَ الرياح الجنوبية - يا ليلَ النجوم الضخمة القليلة!

يا الليل الهادئ السّاهمُ - أيّها الليل الصيفي، المجنون والعاري.

ابتسمي أيتها الأرض الشهوانية ذات الأنفاس العليلة!

يا أرضَ الأشجار النائمة والجارية!

يا أرضَ الغروب الراحل -

أرضَ الجبال المكلّلة بالضباب!

أرضَ الانسكاب الزجاجي للبدر الملطّخ للتوّ بالزرقة!

أرضَ تعاقبِ الداكنِ والمضيءِ في مدّ النهر!

أرضَ الرّمادِ الشفّاف للغيوم

يصيرُ أكثر وضوحاً وسطوعاً من أجلي!

الأرضُ المُقتَلَعَة، المطرودةُ بعيداً -

الأرضُ الثرية المزهرة بالتفّاح!

ابتسمي، لأنّ حبيبكِ قد جاء.

أيتها السخيّة، لقد منحتِني الحبّ -

وأنا إليكِ سأمنحُ الحبّ!
آهٍ، أيّها الحبّ المتأجّج الذي لا يُفصَحُ عنه!

22

أما أنتَ أيها البحر!
إني أفوّض أمري إليكَ أيضاً - وأعي ما تعني،
أرى، على الشاطئ، أصابعَكَ المتموّجة تدعوني،
وأحسبُ أنك ترفضُ أن تتراجعَ دونَ أن تتحسّسني أولاً،
علينا أن نتبادل الأدوار معاً،
أنا أتعرّى،
وأنتَ تبعدني عن أنظارِ اليابسة،
هدهدني بنعومة،
وأرجحني على خدَرٍ موجيّ،
اخترقني ببلَلَ شبقٍ،
وأنا سأردّ لك الدَين.

يا بحرَ الأمواج المتلاطمة،
أيها البحر الذي يتنهّدُ تنهّداتٍ واسعةً متقطّعةً،
يا بحرَ ملحِ الحياة، والقبور التي لم تُحفر بعد، لكنها جاهزة أبداً،

يا نابحَ العواصفِ ومجرفتها،
يا البحر المغرور، الأنيق،
أنا متوحّدٌ معكَ،
مثلكَ أنتمي إلى طورٍ واحد، وإلى كلّ الأطوار.

شريكُ المدّ والجزر أنا، مدّاحُ الكره والصلح،
مدّاح المتخاصمين،
وأولئك الذين ينامون في أحضان بعضهم البعض.

أنا هو، مختبرُ الرأفةَ،
(هل أحضّرُ قائمة بالأشياء الموجودة في المنزل
وأنسى المنزل الذي يسندُها جميعاً؟)

أنا لستُ شاعر الخير فقط، ولا أرفضُ
أن أكونَ شاعر الشرّ أيضاً.

ما هذا اللغط عن الفضيلة أو عن الرذيلة؟
الشرّ يلهمُني، والتخلّصُ من الشرّ يلهمني،
وأنا أقف غيرَ مبالٍ،
ومشيتي ليست مشية الباحث عن الأخطاء أو مشية الرافض،
إني أبلّلُ [بلعابي] جذورَ كلّ ما ينمو على الأرض.

أتخشى شرّاً ما من امرأةٍ حامل؟
أتظنّ أن القوانين النورانية
ينبغي أن تُفعّلَ ويُصَادقَ عليها؟

أجدُ في طرفٍ واحدٍ توازناً
وفي الطرفِ النقيضِ توازناً،
وأجدُ عوناً مستمراً في العقيدة المرنة
مثلما أجدهُ في العقيدة الثابتة،
وأجدُ في أفكارِ وأفعالِ الحاضر
حافزنا وبدايتنا الأولى.

هذه الدقيقة التي تأتيني، ماحيةً آلافَ الأصفار،
لا يوجد أحسنَ منها، الآن.

لا عَجَبَ بمن تصرّف برويةٍ في الماضي،
أو يتصرّفُ بروية اليوم،
العجبُ، كلّ العَجَبِ،
أن يُوجَدَ إنسانٌ خسيسٌ أو كافرٌ.

23

أيتها الكلمات اللانهائية المتعاقبة عبر العصور!
كلمتي أنا هي كلمةُ الحداثيّ، كلمةُ الجموع.

كلمةُ إيمانٍ لا تهادنُ أبداً،
هنا أو لاحقاً، هي نفسها بالنسبة لي،
وأنا أقبلُ الوقتَ قبولاً مطلقاً.

إنها وحدها دون نقيصة، ووحدها تدوّرُ وتكملُ الكلّ.
تلك المعجزة المحيّرة الغامضة وحدها تكملُ الكلّ.

أقبلُ الواقعَ، ولا أجرؤ على الشكّ به،
الماديّةُ أولاً وأخيراً، مبثوثة فيه.

طوبى للعلم الوضعي! وليحيا الشّرح الدقيق!
أحضر زهرَ السّيدوم، ممزوجاً بخشب الأرز، وأغصان الليلك،
هو ذا مؤلف المعاجم، هو ذا الكيميائي،
هو ذا من ابتكرَ النحوَ معتمداً على النقوش القديمة،
هؤلاء هم البحارة
الذين وضعوا السفينة في بحار مجهولة خطرة،
هذا هو عالم الجيولوجيا،

وذاك هو الجرّاحُ الذي يستخدمُ المبضعَ،
وهذا هو عالم الرياضيات.

لكم أنتم أيها السادة أوسمة الشرف دائماً!
حقائقكم مفيدة، لكنها لا تصلح أن تكون سُكناي،
أنا أدخلُ، من خلالها، إلى سكنى يخصّني.

لا تُخبرُ كلماتي، إلاّ قليلاً، عمن يتذكّرون الأملاكَ،
وكثيراً ما تروي عمن يتذكّرون الحياةَ التي لم تُروى،
الساعين للحرية والانعتاق،
تقدّم وصفاً مبتسراً للمخنّثين والمخصيين،
وتحكي عن النساء والرجال الأكفاء جداً،
تدقّ أجراس التمرّد، وتتوقفُ مع المنبوذين،
ومع أولئك الذي يحيكون المؤامرات والدسائس.

24

وولت ويتمان، كونٌ بحاله، وابنُ مدينةِ مانهاتن،
مشاغبٌ، مكتنزٌ، شهوانيٌ، يأكل ويشربُ وينجبُ،
إنّه ليس سنتمنتالياً، ولا يتعالى على النساء والرجال،
أو يقفُ بمعزلٍ عنهم،

وليس أقل أو أكثر تواضعاً منهم.

اخلعوا الأقفالَ من الأبواب!

اخلعوا الأبوابَ نفسها من مفاصلِها!

كلّ من يهينُ الآخرَ يهينني،

وكل ما يُقال أو يُفعَلُ يرتدّ إليّ أخيراً.

عبري، يفيضُ الإلهامُ ويطفحُ،

عبري، يمرّ التيارُ والمجرى.

أهمسُ بكلمة السرّ البدائية،

وأرسمُ شارةَ الديموقراطية،

وأقسمُ أنني لن أقبلَ بأي شيء

لا يجدُ فيه الكلّ ضالّتهم

وبالشروط نفسها.

عبري، تمرّ أصواتٌ مديدةٌ خرساء كثيرة،

أصواتُ الأجيال المتعاقبة من سجناء وعبيد،

أصواتُ المرضى واليائسين، اللصوص والأقزام،

أصواتُ فصول التهيئة والنموّ،

والخيوط التي تربطُ النجومَ ببعضها،
أصواتُ الأرحام و مني الآباء،
وحقوق أولئك الذين يدوسهم الآخرون،
أصوات المشوهين، التافهين، البليدين، الحمقى، والمحتقرين،
الضباب في الهواء، والخنافس التي تدوّرُ كرات الزبالة.

عبري، تمرّ الأصوات المحظورة،
أصوات المُتع والجنس، أصواتٌ مقنّعة أنزعُ عنها القناع،
أصوات غير مهذّبة، أصفّيها وأحوّل جوهرَها.

لا أضغطُ بأصابعي على فمي،
وأبقى ألامسُ الأحشاءَ بكلّ رفقٍ
مثلما ألامسُ القلبَ والرأسَ،
فالجماعُ ليس أقلّ شأناً من الموت بالنسبة لي.

أؤمن بالجسد وبالشهوات،
النظَرُ والسمعُ والشعورُ هي من المعجزات،
وكلّ جزءٍ وثنيةٍ منّي معجزةٌ.

إلهيٌ أنا، داخلاً وخارجاً، ويصيرُ مقدساً
كلّ ما ألمسُه أو يلمسني،

وعبقُ رائحة هذين الإبطين أكثر حلاوةً من الصلاة،
وهذا الرأس أنبلُ من الكنائس والكتب وكل المعتقدات.

وإذا كنتُ سأعبدُ شيئاً أكثر من غيرِه فسيكون
انبساطُ جسدي أو أي جزء منه،
أيها التكوينُ الشفّاف منّي، ستكونُ أنت!
أيتها الأدغال الوارفة والواحات الظليلة، ستكونين أنتِ!
وأنتَ يا نصلَ المحراث الذَكَري، ستكونُ أنتَ!
وكلّ ما يذهبُ إلى حرثي، سيكون أنت!
أنتَ يا دمي الثري! سائلك الأبيض يعرّي حياتي حتى اللبّ!
والنهود التي تضغطُ على نهودٍ أخرى، ستكونين أنتِ!
ويا عقلي، ستكون تلك تجلّياتك الرفيعة!
جذرُ قصب الذرة المغسول! طائرُ الشّنقب الولهان!
العشّ المحروس لبيضتين متشابهتين! ستكونُ أنتَ وأنتَ!
القشّ المخلوط المبعثر للرأس،
واللحية والعضلات، ستكونين أنت!
السائل المذروف للقيقب،
وألياف سنابل كثيرة، ستكونين أنتِ!

شمسٌ، جدّ سخية، ستكونين أنتِ!
غبشٌ يضيءُ ويظللّ وجهي، ستكون أنتَ!
رياحٌ بأعضائها التناسلية، ذات رنين ناعم
وهي تلامسُ جسدي، ستكونين أنتِ!
الحقول الشاسعة الذكورية،
أغصان البلوط الحيّ،
المتسكعون العشاق في دروبي العاصفة، ستكونون أنتم!
يدان صافحتهما، وجه قبّلتهُ، حيّ لمسته ولو لمرة واحدة،
ستكونون أنتم وأنتم.

أنا شغوف بنفسي، وثمة تلك الفسحة منيّ،
وجميعها حلوة المذاق،
كل لحظة، وكل ما يحدث، يشيعُ فيّ الغبطة،
لا أستطيع أن أفسّر كيف تميلُ كاحليّ،
ولا عن علّة أوهى هفواتي،
ولا عن سبب الصداقة التي أبثّها،
ولا عن سبب الصداقة التي أتلقّاها من جديد.

أصعدُ إلى شرفتي، وأتوقّفُ لأتأكدَ بأنها هناك حقاً،

انبلاجُ الصبح خلف نافذتي
يروي شغفي أكثر من فلسفات الكتب.

يا للنظرِ إلى انبلاج الصبح!
الضوء الصغير يطردُ الظلالَ العملاقةَ الشفّافة،
والهواءُ مذاقُه حلوٌ في فمي.

أثقال العالم المتحرك تنبثق بطيئةً، في وثبات بريئة،
تندفع، ثم تنحرف مائلةً، في انخفاضٍ وعلوّ.

شيءٌ ما لا أستطيعُ أن أراه
يصوّب إلى الأعلى نتوءات شهوانية،
بحارٌ من العصير الساطع يغمرُ السماء.

الأرضُ الماكثة مع السماء، الالتحام اليومي لوصلهما،
التحدّي الجيّاش من الشرق، في تلك اللحظة، فوق رأسي،
العلامة المتهكّمة،
تأمّل، عندئذ، هل ستكونُ السّيدَ!

25

ما أشدّ وأسرعَ ما يقتلني شروق الشمس الباهر،
لو لم أرسل، الآن ودائماً، شروقاً من لدني.

إننا نصعد أيضاً، هائلين ومذهلين كالشمس،
ونجدُ كينونتنا، آه يا روحي، في هدأة وبرودة انبلاج النهار.

صوتي يقتفي أثرَ ما لا تراه عيناي،
وبدورةٍ من لساني أحيطُ بالعوالم، وعوالم العوالم.

الكلام توأمُ بصري، وليس من الإنصاف أن يقيسَ نفسَه،
إنه يحرّضني دائماً، ويقول ساخراً:
"وولت، إنك تحيطُ بما يكفي، فلماذا، إذن، لا تطلق سراحه؟"

هيا الآن، لن أسمحَ بتعذيبي،
وأنتَ تبالغ كثيراً فيما يتعلق بالفصاحة،
ألا تدرك، أيها الكلام، كيف أن البراعم تختبئ تحتك؟
تنتظر في العتمة، يحميها الصقيعُ،
والترابُ يتراجع أمام صرخاتي المستشرفة،
وأنا أختبرُ الأسبابَ كي أوازنَ فيما بينها أخيراً،
معرفتي لأجزائي الحية، تجعلني متيقظاً لمعنى الأشياء جميعاً،
وللسعادة (ولكل من يسمعني، دعه يخرج للبحث عنها اليوم.)

فضيلتي الأخيرة، أرفضُك، أرفضُ أن أقصي عنّي

ما هو أنا حقاً،
تحيطين بالعوالم، لكنكِ لا تُحيطين بي،
أجمّعُ أفضلَ وأحلى ما لديكِ، بمحض النظر إليكِ.

الكتابة والحديثُ لا تبرهنان عليّ،
أحملُ علامةَ البرهان، وكل شيء آخر، في وجهي،
وبحركة من شفتيّ أريكِ تماماً المتشكّكين.

26

والآن لن أفعل شيئاً سوى أن أصغي،
وأضمّ ما أسمعه إلى هذه الأغنية، وأترك الأصواتَ
تشاركُ في صياغتها.

أسمعُ شدوَ الطير، وحفيفَ القمح النامي،
ثرثرةَ النيران، وطقطقةَ الحطب الذي يطبخُ طعامي،
أسمعُ صوتَ الحبّ، نبرةَ الصوت الإنساني،
أسمع الأصواتَ كلها تجري معاً، مجتمعةً، ممتزجةً، أو متناوبةً،
أصواتاً من المدينة وأصواتاً من خارج المدينة،
أصوات النهار والليل،
هرجَ الشبّان مع أقرانهم، والضحكة العالية

للعمّال وهم يتناولون وجباتهم،
القاعدة الغضبى للصداقة المفصودة،
النبرات الخافتة للمرضى،
القاضي بيديه المضمومتين فوق المنضدة،
وشفتيه الشاحبتين اللتين تنطقان بحكم الإعدام،
غمغمات العتّالين وهم يفرغون السفن على الميناء،
والإيقاع المنظّم لرافعي الصواري،
رنين جرس الإنذار، صرخة النار،
هديرُ المحركات السريعة، والزحّافات الصغيرة
بصريرها المنذر وأضواءها الملونة،
صفير البخار، والتدحرج الصلد للقطار بعرباته المقتربة،
الموسيقى البطيئة تُعزَفُ في مقدمة الموكب الزاحف اثنين اثنين،
(إنهم ذاهبون لحراسة جثة ما،
حيث حوافّ الأعلام مزيّنة بحرير أسود.)

أسمعُ مقطوعة الكمان "فيولنسيللو،" (إنها شكوى قلب العازف)
أسمعُ البوقَ المتوثّب، إنه ينسلّ بسرعة عبر أذني،
ويحرّك آلاماً حلوةً، مجنونةً، في صدري وجوارحي.

أسمعُ الجوقةَ، إنها أوبرا رفيعة،
أوه، إنها حقاً موسيقى - وهذا يحلو لي.

مغنٍ صدّاح، صوتُه عالٍ وغضّ، يملؤني كالخلق،
الثنية المقوّسة لفمِهِ تنسكبُ وتملؤني حتى الثمالة.

أسمعُ صوتَ المغنية "السوبرانو" المحترفة (أيّ دور منوطٍ بها؟)
الأوركسترا تعصفُ بي، وتذروني أعلى من كوكب يورانوس،
إنها تنتزعُ ذاك الحماس منّي مما لم أكن أحسبُ أنني أملكه،
إنها تبحر بي، أربّتُ بأقدامٍ عارية تلحسُها أمواجٌ كسولة،
أنشطرُ ببَرَدٍ غاضبٍ ومريرٍ، أفقدُ أنفاسي،
أنغرسُ وسط خَدَرٍ مُعسّل،
قصباتي الهوائية تغصّ بخفق الموت،
أخيراً يُطلَق سراحي، لأتحسّسَ لغزَ الألغاز،
وذاك ما ندعوه الكينونة.

27

أن تكون محتوىً داخل شكلٍ ما، ما الذي يعنيه ذلك؟
(ندورُ وندورُ، جميعاً، ونعودُ دوماً القهقرى إلى هناك،)
إذا لم يكن ثمة من شيءٍ يتطوّر

فالمحارة في قوقعتها القاسية كافيةٌ.

أما قوقعتي فليست قاسية،
لي مُرشِدين ينتشرون في كل أنحائي
سواء مررتُ أو توقّفتُ،
يلتقطون كلّ جسمٍ ويقودونَه عبري دون أذىً.

أنا أحرّكُ أو أضغطُ أو أتحسّسُ بأصابعي فقط،
وأكونُ سعيداً،
أن ألمسَ شخصي نيابةً عن شخصٍ آخر
هو كلّ ما أقدرُ على تحمّله تقريباً.

28

أهي لمسةٌ، إذن، ؟ تقذفني إلى هويةٍ جديدةٍ!
لهبٌ وأثيرٌ يندفعان إلى شراييني،
ميلانٌ غادرٌ؛ أسعى وأزدحمُ لمساعدتهم،
دمي ولحمي يعزفان بروقاً
لصعقِ كلّ ما هو مختلفٌ عني،
وعلى كل الجوانب، ثمة محرّضون شهوانيون يوتّرون أعضائي،
يمتصون ضرعَ قلبي حتى آخر قطرة مختزنة،

يتصرّفون بكل إباحية معي ، غير متعففّين عن شيء ،
فاضّين أفضلَ ما أملكُ عن قصدٍ ،
فاكّين أزرار ثيابي ، ممسكين بي من خصري العاري ،
مضلّلين حيرتي بهدوءِ الشّمسِ والمروجِ العشبية ،
قاذفين ، دون ورَعٍ ، حواسي الخمسة بعيداً ،
مغرّرين بي في سبيلٍ لمسة ، يسرفون ويرعون
على حوافّ كل شبرٍ مني ،
لا يقيمون اعتباراً أو يلقون بالاً
لقوتي التي تنهار أو لغضبي ،
وينادون باقي القطيع ليسرحَ ويمرحَ لهنيهة ،
وجميعهم يتّحدون للوقوف على فسحة ترابية
ويثيرون قلقي.

الحرّاسُ يهجرون كل جزء منّي ،
يتركونني خائرَ القوى تحت رحمة سرابٍ أحمر ،
جميعهم أتوا إلى الفسحة الترابية ليتعاونوا ويشهدوا ضدّي.
استسلمتُ على يد الخونة ، مغمغماً دون وعي ،
كأنما فقدتُ عقلي ،

أنا، وليس أي شخص آخر، هو الخائن الأكبر،
أقودُ نفسي أولاً إلى الفسحة الترابية، يديّ تحملاني إلى هناك.

أنتِ، أيتها اللمسة الوغدة! ما الذي تفعلينه؟
أنفاسي محبوسة في حنجرتها،
افتحي بوابات طوفانكِ على مصراعيها،
فأنتِ أكثر مما أحتمل.

29

أيتها اللمسة المكافحة، العاشقة، العمياء،
يا اللمسة ذات الغمد المكشوف، والأسنان الحادّة!
هل يؤلمكِ الرحيل عنّي؟

رحيلٌ يتبعه وصولٌ، تسديدٌ متواصلٌ لدَينٍ متواصلٍ،
مطرٌ هاطلٌ، مدرارٌ، وتعويضٌ أغنى فيما بعد.

الزرعُ يشطأ ويمتدّ، يقف قرب الحافة مكتنزاً وغضاً،
آفاقٌ تتجلّى ذكوريةَ الهيئة، ممتلئةَ الجسد، ذهبيةً.

30

الحقائق كلها تكمنُ في الأشياءِ كلها،
لا تسرعُ في انبثاقها ولا تبطئ،

إنها لا تحتاج مباضع التوليد الطبّية للجرّاح،
المُهمَل مهمّ عندي، كأي شيءٍ آخر،
(ما الأقل أو الأعظم من لمسة؟)

المنطق والمواعظ لا تقنع،
نداوة الليل تتسلل عميقاً إلى روحي.

(فقط ما يبرهنُ نفسَه لكل رجل وامرأة يكون هكذا،
فقط ما لا يمكن لأحدٍ أن ينكرَه يكون هكذا.)

ذرةٌ أو قطرةٌ منّي تهدّئُ دماغي،
أؤمن أن التراب المندّى سيتحوّل إلى عشّاق ومصابيح،
وأن خلاصة الخلاصة هي جسدُ امرأةٍ أو رجلٍ،
والقمّةُ والزهرةُ هناك، هما الشعور الذي يحملانه الواحد للآخر،
يورقان بلا نهاية من ذاك الدرس، حتى يصيرَ كلّياً،
حتى يمنحَنا الواحدُ والكلُ المتعةَ، ونحن نمنحهم إياها.

31

أؤمن أن ورقة العشب ليست أقلّ كمالاً
من حركة النجوم،
وأن النملة لا تقلّ كمالاً أيضاً،

وكذلك حبة الرمل، وبيضة أصغر الطيور،
وضفدعُ الشجر هو سيدُ السادة في مملكته،
وثمر العليق الراكض يستحقّ أن يزينّ ردهات السماء،
وأضيق مفصلٍ في يدي يزدري كلّ مهارة أخرى،
والبقرة التي تطحن التبن مطأطئة الرأس تضاهي أي تمثال،
والفأر معجزة تكفي لإرباك ملايين مضاعفة من الملحدين.

أجد أنني أتحدُ بالصوان والفحم والطحالب الطويلة المتشابكة،
بالفواكه والحبوب والجذور الصالحة للأكل،
وأنا مكسو بكلّ ما يدبّ على أربع
وبالعصافير التي تحيط بي من كل جانب،
أقصيتُ الماضي خلفي لأسبابٍ وجيهة،
لكنني أدعو كلّ شيء للعودة متى رغبتُ.

عبثاً، السرعة أو الحياء،
عبثاً، الصخور البركانية
التي ترسل حرارتها القديمة أمام اقترابي،
عبثاً، يتوارى فيلُ (المستدون) تحت عظامه المطحونة،
عبثاً، تقف الأشياء على بعد فراسخ وتتخذُ هيئات متنوعة،

عبثاً، يتوارى المحيط في التجاويف السحيقة
والجنّ العظيمة تختفي في الأعماق السفلية،
عبثاً، يختار الصقرُ السماءَ مسكناً له،
عبثاً، تنسلّ الأفعى عبر الجذوع والعرائش،
عبثاً، يفرّ الظبي عبر المعابر الداخلية للغابات،
عبثاً، يبحر طائر "الأوك" ذي المنقار الحاد كالموسى
إلى أقصى الشمال باتجاه لابرادور،
إني أتبعُ مسارَه سريعاً، أتسلقُ إلى عشّه
بين تجاويف الجرف الشاهق.

32

أعتقد أنني أستطيع أن أتحوّلَ وأعيشَ مع الحيوانات،
إنها وديعة جداً، ومكتفية بذاتها،
أقف وأنظرُ إليها لوقت أطول.

هي لا تغضبُ ولا تتذمّرُ لحالها،
ولا تبقى ساهرةً في الظلام
تبكي على ما اقترفَته من ذنوب،
ولا تصيبني بالغثيان وهي تناقش واجباتها تجاه الله،

ما من دابة غير راضية أو مصابة بمسّ التملّك،
ما من دابة تركعُ أمام أخرى، أو لفصيلتها التي عاشت
قبل آلاف من السنين،
لا أحد منها غير سعيد فوق الأرض بأسرها.

إنها تتباهى بأواصرها معي، وأنا أقبل بذلك،
إنها تجلبُ لي إشارات عن نفسي،
وتظهرها بوضوح بين متاعها.

أتعجّب من أين أتت بهذه الإشارات،
هل مررتُ بها في سحيقِ الزمن
ورميتها -إشاراتي - بإهمالٍ هناك؟

نفسي تندفعُ إلى الأمام، عندئذٍ، واليوم، وإلى الأبد،
تجمع وتُظهرُ المزيدَ دائماً بطاقةٍ أعلى،
لانهائية، متنوّعة، وتشبه مثيلاتها مما يحيط بها،
ليست إقصائية كثيراً تجاه أولئك الذين يتذكّرونني،
تختار هنا شخصاً أعشقُ، وأذهبُ معه، الآن، وفق شروط أخوية.

هذا الجمال الأخّاذ للمهر، متوثباً،
يستجيبُ حنوناً لتمسيدِ يدي،

مرفوع الرأس، عالي الجبهة، تتسع المسافة بين أذنيه،
عضلاته فتية وقوية، وذيله يكنسُ الأرضَ،
عيناهُ تختزنان ذكاءً متلألئاً، وأذناه مرسومتان بدقة،
تتحرّكان بكل مرونة.

منخراه يرتجفان ما إن تلامسه كاحليّ،
عضلاته المفتولة جيداً تهيجُ متعةً
ما إن أمتطيه ونخبّ معاً ذهاباً وإياباً.

أمتطيكَ للحظة فقط، أيها المهر، ثم أطلق سراحَك،
ما حاجتي لحوافركَ السريعة إذا كنتُ أبزّها سرعةً؟
حتى وأنا أقفُ أو أجلسُ فأنا أفوقكَ سرعةً.

33

الزمان والمكان! الآن أرى أنني كنت محقاً حيال ما ظننتهُ،
ما ظننته وأنا أتسكع فوق العشب،
ما ظننته وأنا أستلقي على فراشي،
ما ظننته وأنا أتمشى على الشاطئ تحت النجوم المتلاشية للصباح.

أغلالي وأثقالي تغادرُني،
وكوعاي تستقران في التجاويف البحرية،

أقطع الجبالَ الشاهقة، راحتاي تغطّيان القارات،
مع رؤياي أسيرُ حافي القدمين.

عند البيوت المربّعة للمدينة - في الأكواخ الخشبية،
أعسكرُ مع الحطّابين، بمحاذاة الطرق الوعرة،
قرب المسيلات الجافّة وأحواض السواقي،
أعزقُ حقلَ البصل أو أشذّبُ صفوف الجَزَر الأبيض والأحمر،
أقطعُ السهوبَ، أتوغّلُ في الغابات،
أستشرفُ، ثمّ أحفرُ باحثاً عن الذهب،
أحزمُ صفقةً جديدةً من الشجر المقطوع،
أدمي كاحليّ متوغلاً في الرمال الملتهبة،
أجدّف زورقي في النهر الضحل،
حيث الفهدُ يروح ويجيء فوق غصنٍ في الأعلى،
حيث الظبيُ يلتفتُ إلى الصياد مستشيطاً غضباً،
حيث الأفعى ذات الأجراس تشمّسُ جلدَها المترهّل فوق صخرة،
حيث ثعلب الماء يلتهمُ السمك،
حيث التمساح، بحراشفه القاسية، ينام قرب الساقية،
حيث الدبّ الأسود يبحث عن الجذور أو العسل،

حيث القندس يطوّح في الطين بذيله الذي يشبه المجداف ؛
فوق قصب السكر النامي، فوق مزرعة القطن ذات البراعم الصفراء،
فوق الأرز في حقوله الواطئة الرطبة،
فوق البيت الريفي، بسقفهِ المستدقّ، وطميه الناتئ،
والطحالب النحيلة المتدلية من ميازيبه،
فوق شجر البرسيمون الأصفر في الغرب،
فوق نباتات الذرة ذات الأوراق الطويلة،
فوق الكتان ذي الزهور الزرقاء الرقيقة،
فوق الحنطة البيضاء والسمراء، مدندنةً ومصفّرةً مع البقية،
فوق الأخضر الغامق للجاودار
حيث يتمايلُ ويستظلّ في النسيم ؛
صاعداً الجبال، متسلقاً بحذر إلى الأعلى،
متشبثاً بفروعٍ واهنة خفيضة،
أقطع الممرّ المحفور في العشب،
شاقاً طريقي عبر وريقات الدغل،
حيث طائر السمّان يصفر بين الغابات وحقول القمح،
حيث الخفّاش يطير عشيةَ الشهر السابع،

حيث الجندبُ الذهبي العملاق يطير مخترقاً العتمة،
حيث الساقية تفيضُ فوق جذور الشجرة العتيقة
في طريقها إلى المروج،
حيث القطيع يتوقّفُ ويطردُ الذباب
بالرجفةِ المرتعشةِ لجلده السرّي،
حيث أكياس الجبن تتدلى في المطبخ،
حيث ملاقط الحطب تباعدُ ألواحَ الموقد،
حيث بيوت العنكبوت تتدلى شرائطَ من السقوف؛
حيث المطارق العملاقة تهوي،
حيث مسنّنات المطابع تعملُ،
وحيث يخفق القلب الإنساني
بمواجع فظيعة بين الضلوع،
حيث المنطاد الشبيه بثمرة الأجاص
يسبح طافياً في الفضاء (وأنا أطفو فيه ناظراً
بتناغمٍ إلى الأسفل)
حيث عربة الإنقاذ تُجرّ فوق أحبولتِها،
حيث الحرارةُ تفقّسُ بيوضاً خضراء شاحبة في الرمل المجوّف،
حيث أنثى الحوت تسبحُ مع وليدها ولا تفارقه أبداً،

حيث السفينة البخارية تتركُ خلفها راية طويلة من الدخان،
حيث زعنفة سمكة القرش تشقّ الماء مثل شظية سوداء،
حيث السفينة الشراعية، نصف المحترقة، تعتلي أمواجاً مجهولة،
حيث القواقع تُقذف إلى دكتها الرشيقة،
حيث الموتى يتفسّخون في الأسفل؛
حيث الراية المدروزة بالنجوم
تُرفَع فوق طليعة الكتائب الزاحفة،
أقتربُ من مانهاتن، عابراً الجزيرة الواسعة الامتداد،
تحت نياغارا، يسقط الشلالُ مثل وشاحٍ على محياي،
عند عتبة بيت، قرب مربط فرس من الخشب القاسي،
خلف خط السباق، مستمتعاً بالنزهات، أو الرقص،
أو لعبة بيسبول جميلة،
في الاحتفالات الذكورية، وسط القذع والشتم،
وإباحيات اللسان، والرقص الصاخب، والشراب والضحك،
عند معصرة الفواكه، أتذوّقُ حلاوةَ اللبّ الأسمر،
ماصّاً العصيرَ بقشّة طويلة،
وفي موسم تقشيرِ التفاح
أتشوّقُ للمزيد من القبلات

لقاءَ كل الفواكه الحمراء التي تقع تحت يدي،

خلال التجمهرات وحفلات الشاطئ، وسهرات السمر،

وطقوس تقشير الذرة، أو تشييد كوخ؛

حيث الطائرُ المغناج يطلق غمغماته العذبة،

يهذرُ، يبكي، ويصرخُ،

حيث أكداس التبن ترتفع في باحة المخزن،

حيث القش يتناثر في كل مكان،

حيث البقرة المهجّنة تنتظرُ في الزريبة،

حيث الثور يتوجّه إلى عمله الذكوري،

والجوادُ إلى فرسه،

والديكُ يتبعُ في إثر الدجاجة؛

حيث البقرات الصغيرات ترعى،

والبطّ يختلسُ طعامَه برجفات قصيرة،

حيث ظلال الغروب تطول وتمتدّ فوق

السهوب الشاسعة الموحشة،

حيث قطعان الجاموس الوحشي

تبتكرُ انتشاراً زاحفاً فوق الأميال المربعة، البعيدة والقريبة،

حيث الطائر المرنان يومضُ،

حيث عنق البجعة المعمّرة ينحني ويلتفّ،

حيث النورس الضاحك يتزلّج على الشطّ،

ويضحكُ ضحكتَه شبه البشرية،

حيث خلايا النحل تصطفّ على مصطبة رمادية

في الحديقة، نصفَ غائرةٍ بين الأعشاب الطويلة،

حيث الحمام المطوّق الأعناق يقف داخل حلقة

على الأرض، مرفوعَ الرؤوس،

حيث عربات الدفن تدخل البوابات المقنطرة للمقبرة،

حيث ذئاب الشتاء تعوي

وسط عراء من الثلج والأشجار المتجمّدة،

حيث طائر البلشون، بقلنسوته الصفراء،

يتقدّمُ إلى حافّة السبخة في الليل

ويصطاد السلاطعين الصغيرة،

حيث الرذاذ المتطاير للسبّاحين والغطّاسين يبرّدُ قيظَ الظهيرةِ،

حيث أنثى الجندب تشذّبُ قصبَتها الملوّنة

فوق شجرة الجوز عند البئر،

عبر سفوح من الكبّاد والخيار ذات الأوراق الفضية كالأسلاك،

عبر النبع الملحي أو فسحة البرتقال، أو تحت شجر التنّوب المخروطي،
عبر نادي الجمبّاز، عبر الصالون المسدل الستائر،
عبر المكتب أو القاعة العمومية،
يسعدني الغريبُ مثلما يسعدني القريبُ
يسعدني الجديدُ مثلما يسعدني القديمُ،
تسعدني المرأةُ القبيحةُ مثلما تسعدني المرأةُ الجميلة،
تسعدني المرأةُ الودودة وهي تنزع قبّعتها وتبدأ بحديثٍ موسقٍ،
تسعدني نبرةُ المنشدين في الكنيسة الناصعة البياض،
تسعدني الكلماتُ الجادّة للواعظ الميثودستي المتصبب عرقاً،
المغتبط كلّياً أمام اجتماع الحشد؛
أنقّل بصري فوق واجهات الدكّاكين في شارع برودوي
طيلة فترة ما قبل الظهر،
ضاغطاً لحمَ أنفي فوق الزجاج المسطّح السّميك،
متسكعاً، طيلة ما بعد الظهر، ملتفتاً بوجهي إلى الغيوم،
نازلاً في الحي، أو متنزهاً على الشاطئ،
يدي اليمنى تحيطُ بخصر صديقٍ على يميني،
واليسرى تحيطُ بخصر صديقٍ آخر على يساري،

وأنا أتوسّط كليهما ؛

أقفلُ راجعاً إلى بيتي مع صبي الدّغل الصامت ، الداكن الوجنتين ،
(يركبُ خلفي عائداً قبيل الغروب بقليل ،)
بعيداً عن القرى المأهولة ، أخرجُ
مقتفياً آثار حوافر الحيوانات أو آثار جزمة صيّد ،
وعلى طرفِ فراشٍ في مشفى
أقدّمُ عصيرَ الليمون إلى مريضٍ يحتضر ،
وقرب الجثّة ، داخل تابوتها ، في بهيم الصمت ، أسهرُ
على ضوء شمعة ،

مبحراً إلى كلّ ميناء ، مغامراً ، مساوماً ،
أندفعُ مع الحشد الفتي ، متشوقاً كالجميع ، طائشاً كالجميع ،
حانقاً على شخصٍ أكرهه ، ومستعداً ، في جنوني ، لطعنه بسكّين ،
وحيداً في منتصف الليل في باحة منزلي الخلفية ،
حيث أفكاري التي غادرتني منذ وهلة قليلة ،
أجوبُ التلالَ العتيقةَ لجبال فلسطين ،
والإله الجميل اللطيف إلى جانبي ،
أنطلق عبر الفضاء ، أنطلق عبر السماء والنجوم ،

أنطلق عبر الأقمار السبعة، والمجرة الشاسعة،
وعبر قطر من ثمانين ألف ميل،
أنطلق مع النيازك المذنّبة، قاذفاً كرات اللهب كغيري،
حاملاً الهلال الطفل الذي يحمل أمه المكتملة في بطنه،
عاصفاً، مستمتعاً، مخططاً، عاشقاً، محذراً،
مفرغاً - مالئاً، ظاهراً -مختفياً،
أقطعُ تلك الدروب ليلَ نهار.

أزور بساتين الأفلاك وأتفحّص الثمارَ،
وأنظرُ إلى ملايين الملايين التي نضجت
وأنظر إلى ملايين الملايين التي ما تزال خضراء.

أحلّقُ وأطيرُ بروحٍ سابحةٍ جذّابة
مساري يمرّ تحت إيقاع ثقلِ الشّواقيل.

أدعو نفسي وأعانقُ الماديّ واللاماديّ،
لا حارس يمكن أن يمنعني، لا قانون.

أُرسي سفينتي لبعضِ الوقت فحسب،
ها هم رُسُلي يطوّفون باستمرار، أو يحضرون لي ودائعَهم.

أذهبُ لأصطادَ الفرو القطبي وحيوانَ الفقمة،
أقفزُ فوقَ الصّدوع، بعصاً مدببة الرأس،
متمسكاً بنوازل جليدية، زرقاء وهشّة.

أعتلي مقدمةَ المركب،
متخذاً مكاني في آخر الليل
بالقرب من عشّ الغراب، أعلى الصارية،
ونبحرُ قاطعين البحر القطبي، يحيطُ بنا نهارٌ فائضٌ،
وفي الصّحو النضر أتمدّد وأنبسطُ فوق الجمال الرائع،
كتلُ الجليد الهائلة تمرّ بي وأنا أمرّ بها،
والمشهدُ صافٍ في كل الاتجاهات،
الجبال المكللة بالثلوج تظهر من بعيد،
أطلقُ سراح مخيلتي باتجاهها،
إننا نقترب من ميدان معركة هائل
وسرعان ما سنشتبكُ معهم،
نعبر نقاط المراقبة الشاهقة للمعسكر،
نعبر بأقدام حذرة خافتة،
أو نلجُ، عبر الضواحي، مدينةً شاسعةً مهدّمة،

أحياؤها وعماراتها المتهاوية
تفوقُ أي مدينة حيّة أخرى في المعمورة.

أنا رفيقٌ حرّ، أبيتُ مؤقتاً بالقرب من نيران الحراسة الغازية،
أطردُ العريسَ من فراشه وأمكثُ مع العروس،
وطوال الليل أضمّها بقوة إلى فخذيّ وشفتيّ.

صوتي صوتُ الزوجةِ، حيث الصرير على درابزين الدرج –
إنهم يحضرون جثةَ زوجي، غريقاً، مبللاً.

أفهم القلوبَ الكبيرة للأبطال،
أفهم شجاعةَ الزمن الراهن وكل الأزمنة،
وكيف رأى الربّانُ الحطامَ المزدحم والمبعثر
للسفينة البخارية،
والموتُ يطاردها في العاصفة،
كيف تشبّث بكل قوة، ولم يتراجع قيد أنملة،
مخلصاً لليالي ومخلصاً للنهارات،
راسماً بأحرف كبيرة على لوح خشبي:
لتكن معنوياتكم عالية، سوف لن نتخلى عنكم؛
كيف تبعهم وظل ماكثاً معهم لثلاثة ليال بحالها

رافضاً أن يتخلى عنهم،
كيف أنقذَ، في آخر المطاف، صحبَهُ الغرقى،
كيف بدت النسوةُ اللابسات فساتين مهتّكة،
وهنّ يُنقَلن بالقوارب من قبورهنّ المهيأة،
كيف بدا الصغار الصامتون، بوجوههم الشائخة،
والمرضى المحمولون، والرجال بشفاههم المنتفخة
وذقونهم غير الحليقة؛
أبتلع كل ذلك، ومذاقه طيّب، أنا أحبه، إنه يصبحُ لي،
أنا هو الربّان، أنا الذي تألمتُ، أنا الذي كنتُ هناك.

يا لهدوءِ وترفّعِ الشهداء!
الأمّ، في الزمن الغابر، تُحَاكَم كساحرة،
وتُضرَمُ فيها نيران الحطب الجافّ، فيما أطفالها يحدّقون،
العبدُ المطارَدُ، منهوك القوى، يتكئُ على السياج، يلهثُ،
يتصبب عرقاً،
الأشواك تخزُ قدميه وعنقه كالإبر،
الخردقُ القاتل وأزيزُ الرصاص،
أشعرُ كلّ هذا، أو كلّ هذا أنا.

أنا العبدُ المطارَدُ، أرمشُ عند كل عضّة كلبٍ،
الجحيمُ واليأس يهبطان على رأسي،
والرماةُ يصوّبون ويطلقون مرةً بعد أخرى،
أتمسّكُ بحديد السياج، دمي يسيلُ، ويصيرُ أرقّ
بسبب نزيف جلدي،
أسقطُ على العشب والأحجار،
الفرسان ينهرون خيولهم المتردّدة، يقتربون مني أكثر فأكثر،
يصمّونَ آذاني الدائخة بسبابهم، ويشبعونني ضرباً مبرّحاً
على رأسي بهراواتهم.

الآلامُ هي إحدى طرائقي في تغيير أثوابي،
إني لا أسالُ الجريحَ كيف يشعرُ،
أنا نفسي أصبحُ الشخصَ الجريح،
مواجعي تزرقّ فيما أنا أتكئ على عصاي وأراقبُ.

أنا رجل الإطفاء المهشّم، في صدري ضلعٌ مكسور،
الحيطانُ المتهاوية دفنتني في حطامها،
أستنشقُ الحرارةَ والدخانَ، وأسمعُ صيحات رفاقي
تناديني،

أسمعُ الصريرَ البعيدَ لفؤوسهم ومعاولهم،
هاهم يزيحون العوارضَ جانباً وبلطفٍ يخرجونني.

أستلقي في هواء الليل، مرتدياً قميصي الأحمر،
هذا السكونُ المخيّمُ من أجلي،
بلا ألمٍ أستلقي، منهكاً، ولكن ليس بلا سعادة،
بيضاء وجميلة تلك الوجوه حولي،
الرؤوس نزعت قبعات الحريق،
الحشد الرّاكع ينفضّ ويغيبُ مع ضوء المشاعل.

بعيدون وموتى يُبعثون،
إنهم يظهرون كقرص الساعة،
أو يتحرّكون كعقاربَ لي، وأنا نفسي السّاعة.

أنا القنّاص القديم خلف مدفعي،
أحكي عن قصفِ حصني،
إنني هناك من جديد.

من جديد، أسمعُ القرعَ الطّويل للطبول،
من جديد، المدفع المهاجم، وقذائف الهاون،
من جديد، يتردّد صدى المدفع إلى أذني المنصتتين.

أشاركُ - أرى وأسمعُ كل شيء،
الصيحات، اللعنات، الهدير،
المصفقين للرصاص الذي أصاب أهدافه،
نقالة الإسعاف التي تمرّ بطيئةً
وتتركُ خلفها خيطاً من الدم،
العمّال وهم يتفقّدون مواطن العطب،
ويجرون إصلاحات لا غنى عنها،
سقوط القنابل عبر السقف المتصدّع،
الانفجار ذو الشكل المروحي،
أزيزُ الأعضاء لمتطايرة والرؤوس والحجارة والخشب والحديد
عالياً في الهواء.

من جديد، يغمغم فمُ جنرالي المحتضر،
إنه يلوّح بيده محموماً،
ويتلفّظ عبر دمه المتخثّر:
لا تهتمَ لشأني - اهتمّ - بالتحصينات.

34

الآن أروي ما عرفته في تكساس أيام شبابي،

(لن أحكي عن سقوط مدينة ألامو،

لم ينجُ أحدٌ ليخبر عن سقوط ألامو،

المائة والخمسون مازالوا بُكماً في ألامو،)

إنها قصة قتلٍ، بدم بارد، لأربع مائة واثني عشر رجلاً.

منسحبين إلى ساحة خاوية،

اتّخذوا من أمتعتهم متاريسَ بعلو الصدر،

تسع مائة قتيل من العدو الذي يضربُ الحصار -

تسعة أضعاف عددهم - كان الثمن الذي قبضوه سلفاً،

غير أن قائدهم الكولونيل قد جُرح، وذخيرتهم نفذت،

وكان عليهم أن يوقعوا استسلاماً مشرفاً،

ويتسلّموا وثائقَ ممهورةً بالأختام -

سلّموا سلاحَهم

وعادوا القهقرى سجناءَ حرب.

كانوا صفوةَ فرقتهم من الجنود الجوّالة،

لا يضاهي مهارتهم أحدٌ في الخيل والبندقية

والأغنية وسهر العشيات والغزَل،
أقوياء، متوثبين، كرماء، وسيمين، فخورين، عاطفيين،
ملتحين، كوتهمُ الشمسُ، يرتدون اللباس الحرّ للصيادين،
ولم يتجاوز أحدٌ منهم سنّ الثلاثين.

في صباح اليوم التالي جيء بهم أرتالاً
وأعدموا،
كان صيفاً جميلاً مبكّراً،
بدأت المجزرةُ حوالي الخامسة وانتهت في الثامنة.

لم يطع أحدٌ منهم أمراً بالركوع،
بعضهم قام بانقضاضٍ يائسٍ مجنون،
وبعضهم وقف جامداً، منتصب القامة،
البعض سقط على الفور، أُصيب في الصدغ أو القلب،
واختلط الحيّ بالميت،
المشوّهُ والمبتورُ راح ينبش في التربة،
القادمون الجدد رأوا ذلك بأم أعينهم،
بعض أنصاف المقتولين حاولوا الزحف بعيداً،
هؤلاء أُرجعوا بالحراب طعناً،

أو مُزقوا إرباً بسكاكين البنادق،
فتىً، لم يبلغ السابعة عشرة، انقضّ على قاتله
ولم يستطع قاتُله الفكاكَ منه إلا بتدخّل اثنين آخرين،
والثلاثة مُزّقوا، ملطّخين بدم الصبي.

في الحادية عشرة بدأ حرقُ الجثث،
تلكم حكاية المجزرة التي ذهب ضحيتها
أربع مائة واثني عشر شاباً.

35

أتريدون أن تسمعوا عن معركة بحرية قديمة؟
أتريدون أن تعرفوا من انتصر في ضوء القمر والنجوم؟
أنصتوا للقصة كما رواها والد جدتي البحّار.

عدونا لم يكن جباناً في سفينته، دعوني أقول لكم - (قال)
كانت شجاعته إنكليزية فظّة، حقيقية و متينة،
لم يبزّه - ولن يبزّه - أحدٌ البتّة،
انقضّ علينا، مفزِعاً، تحت جنح المساء الهابط.

اشتبكنا معه، وتشابكت المسافات، والتحمت المدفعيةُ،
وربّان سفينتنا اندفعَ بأقصى سرعته، بأقصى سرعةٍ ليديه.

أمطرونا بوابل من الطلقات تحت الماء،
في القسم السفلي من مدفع الدكّة
انفجرت قطعتان ضخمتان
سرعان ما شبّت فيهما النيران، قاتلةً كل من حولها،
متابعةً تفجّرها فوق الرؤوس.

واستمرّ القتالُ في الغروب، في الليل،
في العاشرة ليلاً، في منتصف الليل،
والقمر التمام في أعلى سمائه،
واستمرّ تسرّبُ الماء إلى سفينتنا،
بل قيل بلغَ ارتفاعها خمسة أقدام،
ضابطُ النظام في السّفينة أطلق سراح السجناء
لكي يعطيهم فرصة للنجاة بأنفسهم.

وأوقف الحرسُ الحركةَ من وإلى مخزن الذخيرة
لأنهم يستطلعون الآن وجوهاً غريبة يرتابون بها.

سفينتنا تتعرّضُ للنيران،
أحدهم يسأل إن كنا نحتاج إلى إغاثة؟
وهل أُصيبت راياتنا وانتهى القتال؟

في هذه اللحظة أضحكُ، راضياً،
لأنني أسمع صوت القبطان الشاب يصرخ:
لم نُصَب، الآن بدأ دورنا في القتال.

ثلاثة قطعٍ للمدفعية فقط جاهزة للاستعمال،
إحداها تحت إمرة القبطان نفسه الذي يصوّب نيرانه
باتجاه الصارية الرئيسية لسفينة العدو،
واثنان آخران محشوان جيداً بالبارود والشظايا العنقودية،
تُسكتان خططَ العدو وتخليان مواقعه.

أعالي السفينة فقط امتصت نيران هذه البطارية الصغيرة،
وخاصة الصّارية الرئيسية،
وجميعها صمدت بشجاعة طوال مجرى المعركة.

لا توجد لحظة توقف،
المياه المتسربة ترتفع أكثر فأكثر،
والنيران تشق طريقها باتجاه مخزن البارود.
إحدى مضخاتنا نُسفت، وظننا جميعاً أننا نغرق.

هادئاً، يقف القبطان الشاب،
إنه ليس في عجلة من أمره،

صوته لم يكن عالياً أو خفيضاً،
عيناهُ تشعّان نوراً أكثر من قناديلنا الحربية.

حوالي الثانية عشر ليلاً،
وتحت أشعة القمر، استسلموا لنا.

36

ساكناً، شاسعاً، يرقدُ منتصفُ الليلِ،
جسدان عظيمان لسفينتين تطفوان، بلا حراك، في العتمة،
قاربُنا المثقّب بالرّصاص يغرقُ على مهل،
نتحضّر للانتقال إلى سفينة أخرى كنّا استولينا عليها،
والقبطانُ، من قمرته الحربية، يصدر أوامرَه بحزم،
وجهُهُ مثل صفحةٍ بيضاء.
بالقرب من جثة الطفل الذي يعملُ في القمرة
يطلّ وجهٌ ميتٌ لبحّار عتيق، شعرُه طويلٌ أشيب،
وسالفَاه معقوفان بعناية،
اللهبُ يتصاعدُ من كل شيء،
متراقصاً في الأعلى كما في الأسفل،
الأصوات المبحوحة لضابطين أو ثلاثة

ما زالوا قادرين على الحركة،
أكداسٌ عشوائية من الجثث المكومة فوق بعضها البعض،
ومزقٌ من اللحم المتطاير على الصواري والأشرعة،
حبالٌ مقطّعة، وأشرعةٌ متدلية،
ضرباتٌ خفيفة لأمواج مهدهدة،
أسلحة هامدة دكناء، نثراتُ بارود مبعثر، رائحة قوية،
بضع نجوم كبيرة في الأعلى، تشعّ صامتة حزينة،
زفراتٌ رقيقةٌ من نسيم البحر،
روائحُ أعشاب شوكية وحقول بالقرب من الشاطئ،
رسائل موتى أُتُمِنَ عليها الناجون،
هسيسُ سكّين الجرّاح، الأسنانُ القاطعةُ لمنشاره،
أنفاسٌ متقطّعة، جلبةُ أصوات، جريانُ الدّم المسفوح،
صرخةٌ قصيرة جارحة، ثم الأنين الطويل المبرّح،
هذه وتلك، وما لا يُستعاد.

37

أيها الحرس المتقاعسون! انتبهوا لسلاحكم!
خلف الأبواب المقهورة يتجمهرون! وأنا أتقمّصُ غيري!

أجسّدُ كلّ حضورٍ، المنبوذَ أو المتألمَ،
أرى نفسي في السجن على هيئة شخصٍ آخر،
وأشعر الألمَ الرتيبَ المتواصلَ.

من أجلي يتنكّبُ السجّانون بنادقَهم ويسهرون،
أنا من يُطلَق سراحَه في الصباح ويُحجَر عليه في الليل.

ما من متمرّدٍ يسيرُ مقيدَ الرسغين إلى السجن
إلاّ وأنا مقيدٌ معه، أمشي إلى جانبه،
(أنا الأقل فرحاً هنا، الأكثر صمتاً، فيما العرق
يتصبّب على شفتيّ المرتعشتين.)

ما من يافعٍ يُساق بتهمة السرقة إلا وأُساق معه،
أُحَاكَم ويُحكم عليّ.

ما من مريض بالكوليرا، يرقدُ، لافظاً أنفاسه الأخيرة،
إلاّ وأرقدُ مثله، لافظاً أنفاسي الأخيرة،
وجهي أبيض كالرماد، أعصابي متوتّرة،
والناس ينفضّون عنّي.

المتسوّلون يتجسّدون بي وأنا أتجسّد بهم،

أجلسُ، أمدّ قبّعتي، طافحاً بالخجل،
وأتسوّلُ.

38

كفى! كفى! كفى!
لسببٍ ما، أخذتني الدهشةُ. لا تقترب!
امنحني وقتاً قليلاً يتجاوز رأسي المعصوب،
نومي، أحلامي، وتثاؤبي،
فأنا أكتشفُ نفسي على شفا غلطةٍ اعتيادية.

علّني أنسى الساخرين وإهاناتهم!
علّني أنسى الدموع المنسكبة
وضربات الهراوات والمطارق!
علّني أستطيع أن أنظر إلى صَلبي
وتتويجي الدموي بعينٍ حيادية!

أتذكّر الآن،
أستأنفُ الكِسرَ الذي طالَ مكوثه،
القبرُ الصخري يردّد ما أُسِرّ إليه،
أو أُسرّ إلى أيّ قبر آخر،

الأموات ينهضون، والجراح تشفى،
وقيودي تنحلّ عني.

أمشي قُدُماً، مسلّحاً بقوة عليا،
في موكب جماهيري لا ينتهي،
نطوّف براً وبحراً، ونجتاز كل الحدود،
طقوسنا السريعة المقدّسة تعمّ الأرض بأسرها،
براعمنا التي نرتديها على قبّعاتنا هي
نماءُ آلافٍ من السنين.

أيها التلاميذ، إني أحييكم، ولتمضوا قُدماً!
استمرّوا بكتابة حواشيكم، واستمرّوا بطرح أسئلتكم.

39

ذاكَ البربري الأنيس، المنساب، من يكون؟
هل ينتظر الحضارةَ، أم أنه تجاوزها، وتسيّدها؟

أهو جنوبيٌ - غربيٌ ترعرع في العراء؟
أهو كندي؟ أهو من منطقة المسيسيبي؟
أهو من أيوا، من أورغون، من كاليفورنيا؟
أهو من الجبال؟ هل عاش حياةَ البراري، حياةَ الأدغال؟

أم هو بحّارٌ جاء من البحر؟

أنّى يذهبُ، ترحّبُ به النساءُ والرجالُ ويشتهونه،
يشتهون أن يحبهم، يلمسَهم، يتحدّثَ إليهم، ويمكثَ معهم.

سلوكٌ حرّ كندف الثلج، كلمات بسيطة كالعشب،
شعر غير مسرّح، ضحك، وبراءة،
أقدام بطيئة الخطوات، ملامح مألوفة،
حركات مألوفة، وتعابير مألوفة،
صفاتٌ تنحدرُ، جديدةً، من رؤوس أصابعه،
تمتزجُ برائحة جسده أو أنفاسه،
وتطيرُ خلل نظرةٍ من عينيه.

40

يا غرورَ شروق الشمس، لا أحتاج دفئكَ،
أنتَ تضيءُ السّطوح وحدها، أما أنا
فألجُ السطوحَ والأعماق معاً.

أيتها الأرض! يبدو أنك تبحثين
عن شيء في يدي،
قولي، أيتها البربرية، ما الذي تريدينه؟

أيها الرجل، أيتها المرأة،
يمكنني أن أقولَ كيف أحبكم،
لكنني لا أستطيع،
ويمكنني أن أبوحَ بسرّي وما تخفون،
لكنني لا أستطيع،
ويمكنني أن أحكي عن ذاك الشوق الذي يعتملُ فيّ،
وعن ذاك الخفقان المسموع في لياليّ ونهاراتي.

انتبهوا، إني لا أعطي محاضرةً، أو صدقةً قليلة،
حين أعطي، فإنما أُعطي نفسي.

أنتَ، أيها العاجز جنسياً، ركبتاك منهكتان،
افتح لي أضلاعكَ المضمّدة لأنفخَ فيها الجسارة،
ابسط راحتيك، وارفع حواشي جيوبكَ،
فأنا لا يُردّ لي طلبٌ، بل إني آمُرُكَ،
لدي مخازن عامرة، احتياطية،
وكلّ ما أملك، أهبُهُ.

أنا لا أسألُ من أنتَ، فهذا لا يهمّني،
يمكنك أن لا تفعل شيئاً، وأن تكون لاشيء،

ولكن كلّ شيء أقومُ به، يشملكَ.

على كتف كادح القطن أو منظف المراحيض أتكئ،
وأطبعُ قبلةً عائليةً على خدّه الأيمن،
حالفاً، في روحي، أن لا أصدّه أبداً.

لنساء مهيآت للإخصاب، أكوّنُ أطفالاً أقوى وأكثر رشاقة،
(هذا اليوم أفيضُ بسائلٍ يؤسّس لجمهورياتٍ أكثر صلفاً.)

إلى كلّ مُحتَضِر، أهرعُ وأديرُ قبضةَ الباب،
أسحبُ أغطيةَ الفراش إلى أسفل السرير
و أسمحُ للطبيب والكاهن بالمغادرة.

أتلقّفُ الرجل السّاقط وأرفعه بإرادة لا تُقاوم،
أنتَ، أيها اليائس، خذ رقَبَتي،
أقسمُ أنكَ لن تهوي! فلتضع كلّ ثقلك عليّ.

أهدهدكَ بأنفاسٍ عظيمة، وأرفعكَ وتطفو،
أملأُ كل غرفةٍ من البيت بقوة مسلّحة،
أملؤها بعشّاقي، قاهري القبور.

نَم - أنا وهم حرّاسكَ طوال الليل-

لا الريبة، لا الموت، يجرؤ على وضع إصبعه عليك،
عانقتكَ، فامتلكتكَ جزءاً من نفسي،
وعندما تستيقظ في الصباح، ستجد أن ما أقوله لك صحيح.

41

أنا هو من يعينُ المرضى المطروحين على ظهورهم، يلهثون،
وأنا هو من يجلب للأقوياء المستقيمين عوناً أكبر من ذاك.

سمعتُ ما قيل عن الكون،
سمعتهُ وسمعتهُ، على مدى آلافٍ من السنين،
كونٌ معتدلٌ في سريانه - ولكن أهذا هو كلّ شيء؟

مُعظّماً ومادحاً أجيءُ،
متجاوزاً في مهارتي، منذ البدء، شيوخَ البلاغة الحذرين،
واهباً لنفسي أبعادَ الإله يهوه،
متقمّصاً صورةَ كرونوس، وابنَه زيوس، وجدّهُ هرقل،
مبتاعاً نسخاً من أزويريس، إزيس، بيلوس، براهما، وبوذا،
وفي حقيبة أوراقي أضعُ مانيتو طليقاً، اللهَ على ورقة،
ولوحةَ الصّلبِ.
مع أودين، وصاحبة الوجه القبيح ميكسيتلي،

مع كلّ وثنٍ وصورة،
مقيّماً هؤلاء جميعاً كما يستحقون،
ولن أمنحهم قيمةَ سنتٍ واحد أكثر،
(آلهةٌ تحمل النذرَ اليسيرَ لفراخ الطير
التي يجب أن تنهضَ الآن وتطيرَ
وتغرّدَ من أجل بعضها البعض.)
أوافقُ على السيكتشات الإلهية، غير المكتملة،
فقط من أجل أن أملأها بفيوضات ذاتي،
وأغدقها، سخياً، على كل رجل وامرأة،
مكتشفاً ما هو أكثر أو أعظم في بنّاءٍ يصممّ البيتَ،
واضعاً له غايات أسمى،
وهو يعملُ بملاطه وإزميله، مشمّرَ الساعدين.
لن أشكك بأيّ إلهامٍ بعينه،
معتبراً كلّ خاتمِ دخانٍ، أو شَعرةٍ على ظهر يدي،
أمراً ملغِزاً كأيّ إلهام.
فتيان سيارات الإطفاء، الممسكون بالحبال وكلاليب السلالم،
ليسوا أقلّ أهميةً، في نظري، من آلهة الحروب القديمة،
مصغياً لأصواتهم تشق طريقها عبر رُكام الهدم،

أطرافهم، المفتولة العضلات، تثبُ آمنةً فوق السقوف المشروخة،
جباههم تطلّ وضّاءةً، معافاةً، بين ألسنة اللهب.
مع زوجة الميكانيكي، ورضيعها المتشبّث بحلمتها،
شفيعاً لكلّ مولود.
مع ثلاثة مناجل، أثناء الحصاد، تحشّ الزرعَ على نسق واحد،
لثلاثة ملائكة شبقين، بقمصانهم الفائضة حول خصورهم.
مع سائس الخيل، بأسنانه الناتئة وشعره الأحمر،
مكفّراً عن ذنوبٍ مضت وأخرى قادمة،
يبيعُ كل ما يملك، مرتحلاً على الأقدام،
ليدفعَ أجور المحامين عن أخيه،
وليجلسَ إلى جانبه فيما الأخير يُحاكم بتهمة التزوير.

ما بعثرتُه حولي في حرم الباحة، قدر ما أستطيع،
لم يملأ الباحةَ،
الثور والخنفساء لم يُعبدا بعد نصفَ العبادة،
القذارة والمزابل أكثر مدعاةً للإعجاب مما كنا حلمنا به،
ولأنّ للخارق لا أهميةَ له، أنتظرُ زمني
لأكون واحداً من الأخيار،

وسيأتي اليوم الذي أقدّم فيه الخير أفضل من أي فضيلٍ،
وأكون أكثر سخاءً.
وحقّ حياتي، ها إني أصبحُ الخالقَ،
أضعُ نفسي، هنا والآن، في الرّحم المخطوف للظلال.

42

صيحةٌ في عمق الزّحام،
إنه صوتي، جهورياً، كاسحاً، ونهائياً.

تعالوا يا أطفالي،
تعالوا يا صبيتي، وبناتي، ونسائي، الرفاق منكم والعشّاق،
الآن يُطلق المغنّي جسارتَه،
عازفاً افتتاحيتَه على أوتارِ نفسه.

أوتارٌ يسهل العزف عليها بأصابع حرّة -
إنّي أشعرُ ترنيمَها، في علوّه وانخفاضه.

رأسي يدور حول رقبتي،
والموسيقى تصدحُ، ولكن ليس من الأرغن،
أهلٌ يتجمهرون حولي،
لكنهم ليسوا أهلَ بيتي.

أبداً هي الأرض الصلبة التي لا تغرق،
أبداً هم الآكلون والشاربون،
أبداً هي الشمس الغاربة أو الطالعة،
أبداً هو الهواء، وحركات المدّ التي لا تنتهي،
أبداً هي نفسي، هم جيراني، متجدّدين، أشراراً، حقيقيين،
أبداً هو الاستجواب القديم الغامض،
أبداً هي الأصابع المغروزة بالشوك،
أبداً هي الأنفاس التي تنفث ألماً وعطشاً،
أبداً هي صيحات الازدراء حتى نعثر على مكمن العابث
ونحضره موجوداً،
أبداً هو الحب، أبداً هو النسغ الباكي للحياة،
أبداً هي العُصابة تحت الذقن،
أبداً هي مصاطب الموت.

هنا وهناك يسيرون، حيث العيونُ قطعٌ نقدية تلمعُ،
يشبعون جشعَ البطون، فيما عقولهم تتسكّع حرّةً،
يأخذون، يشترون ويبيعون البطاقات،
لكن لا أحد يذهب، ولو مرةً، إلى الاحتفال،

الأغلبيةُ يتصببون عرقاً، يكدحون ويشقون،
لكنهم لا يحصلون سوى على القشّ كأجرٍ لهم،
قلةٌ قليلة تملكُ، ولا تعملُ،
لكنها تستفردُ دائماً بالغلال.

هذه هي المدينة، وأنا أحد مواطنيها،
وكلّ ما يهمّ غيري يهمّني:
السياسة، الحروب، الأسواق، الصحف، المدارس،
رئيس البلدة، المجالس، البنوك، الضرائب،
السفن البخارية، المصانع، البضائع،
المخازن، العقارات الشخصية والعامّة.

تماثيل المانيكين الفتية، المزهوّة
بمعاطفها الطّويلة وياقاتها المرفوعة،
أعرف ماهيتَها (هي ليست بالتأكيد براغيث أو ديدان)
وأعرف نظائرَ ذاتي، فالأضعف والأكثر سطحية خالدٌ بالنسبة لي،
ما أقوله وأفعله ينتظرهم جميعاً مثلي،
وكل فكرةٍ تخطرُ لي تخطرُ لهم.

أعرف معرفةً أكيدة أنانيتي،

أعرف أبياتي النهمة، ويجب أن لا أكتب أقل منها،
وسوف أستحضركَ، أنتَ، كائناً من تكون، صنواً لنفسي.

أغنيتي هذه ليست كلمات روتينية،
إنها تباغتك بالسؤال، وتقفز فيما وراء التخوم،
مع ذلك تقتربُ منك.
هو ذا الكتاب المطبوع والمغلّف،
ولكن ماذا عن آلة الطباعة، وصبي آلة الطباعة؟
هي ذي الصور الفوتوغرافية المتلقطة بمهارة،
ولكن ماذا عن زوجتك أو صديقك،
وهما ينامان بين ذراعيك؟
هي ذي السفينة السوداء المصفّحة بالحديد،
حيث مدافعها العملاقة فوق أبراجها،
ولكن ماذا عن شجاعة القبطان والمهندسين؟
في المنازل، ثمة الأطباق والأطعمة والأثاث،
ولكن ماذا عن المضيف والمضيفة، وتلك النظرات
المنطلقة من عيونهما؟
السماء في الأعلى،

ولكن ماذا عن هنا، أو ما هو قريب من هنا،
أو ما هو في الجهة المقابلة من الطريق؟
القديسون والحكماء في التاريخ،
ولكن ماذا عنك أنتَ نفسكَ؟
الصلوات، العقائد، واللاهوت -،
ولكن ماذا عن العقل الإنساني الذي لا يُسبَرُ غوره؟
وما العقل؟ ما الحبّ؟ وما الحياة؟

43

لستُ أحتقركم، يا قساوسة كل زمان ومكان،
إيماني أقوى من كلّ إيمان، وأضعفُ من كل إيمان،
عبادتي تشملُ القديمَ والحديثَ، وما بين القديم والحديث،
أؤمنُ أنني سأُبعَثُ ثانيةً في الأرض بعد خمسة آلاف سنة،
منتظراً أجوبةَ النبوءات، مقدّساً الآلهةَ، ومحيياً الشمسَ،
صانعاً تعويذةً من الصخرة الأولى، أو الجذع الأول،
ممسكاً بالعصيّ، ومقيماً شعائري داخل دائرة السحر،
معيناً اللاّما، أو البراهما، وهما يزيّنان قناديلَ الأصنام،
راقصاً في الشوارع في موكبٍ شبقي،
متوحّداً، عارياً في الغابات، مثل متعبّدٍ هندوسي،

محتسياً النبيذَ من كأس الجمجمة،
عاشقاً لتلك الكتب كالشاستا والفيدا والقرآن،
متجولاً داخل معابد الآزتيك، مُلطّخاً بالدم المتخثّر
على الحجارة والسكاكين،
ضارباً على الطبل المصنوع من جلد الأفعى،
متقبّلاً الأناجيل، وذاك الذي صُلب وهو متيقنٌ أنه إلهيٌّ،
في ركوع القداس أو النهوض أثناء صلاة الطهرانيين،
أثناء الجلوس صبوراً خلف مقعد الكنيسة،
مرغياً مزبداً في محنة جنوني،
أو منتظراً كالميت حتى توقظني روحي،
ناظراً إلى الأرصفة أو اليابسة،
أو فيما وراء الأرصفة واليابسة،
أعلنُ انتمائي إلى محرّكي دورة الحياة.

وكعضوٍ في عِصابةٍ، جاذبة ونابذة،
ألتفتُ وأتحدّث كرجلٍ يوكلُ المهمات قبل الرّحلة.

أنتم أيها الشكّاكون، بقلوبٍ مكلومة،
أيها الضجرون، المهمّشون،

الساخرون، العاقلون، الغاضبون، الكئيبون،
المنفعلون، المذعورون، الملحدون،
أعرفكم واحداً واحداً،
وأعرف بحرَ العذاب والشك واليأس والإلحاد.

يا للزعانف كيف تضربُ الماء!
كيف تتلوى سريعةً كالبرق،
مرسلةً شهبَ وسهامَ الدّم!

اهدئي، أيتها الزعانف الجهنّمية،
يا روح الشكّاكين والمفكّرين الحزانى،
إني آخذ مكاني بينكم، مثلما أفعلُ مع أيّ آخر،
الماضي هو دفعُ يديكم، جميعاً، تماماً بالتساوي،
وكلّ ما لم يُجرّب بعد، سيكونُ، لاحقاً، لكم، ولي، وللجميع،
تماماً بالتساوي.

لا أعرفُ ما الذي لم يُجرّب، وما سيأتي لاحقاً،
لكنني أعرف أنه سيبرهنُ، في حينهِ، على أنه كافٍ
وأنه لا يمكنُ أن يخطئ.

وكلّ من يمرّ، يُحسَبُ له حساباً،
وكل من يتوقّف، يُحسَبُ له حساباً،
ولا يمكنُ أن يغفلَ أحداً.

لا يمكن أن يغفلَ الفتى الذي ماتَ ودُفن،
و لا الفتاة التي ماتت ودُفنت إلى جانبه،
ولا الطفلَ الذي استرقَ النظرَ من خلف الباب،
ثم قفلَ راجعاً، ولم يُرَ، بعدئذٍ، أبداً،
ولا العجوزَ الذي عاش بلا هدف،
وصار نهباً لمرارةٍ أسوأ من الحنظل،
ولا ذاك الذي يجلسُ مسلولاً،
حبيسَ بيته الفقير، وقد أنهكته الخمرُ والفوضى،
ولا الأعداد التي لا تُحصى ممن قُتلوا أو نُكبوا،
ولا متوحّشُ سومطرة، ممن أُطلِقَ عليه اسمُ قذارة الإنسانية،
ولا المتضوّرين جوعاً، بأفواهٍ مفتوحة، ينتظرون الطعام،
ولا أيّ شيء في الأرض، أو في أقدم قبور الأرض،
ولا أيّ شيء في سماوات الأفلاك،
أو سماوات السماوات التي تسكنها،

لن يغفلَ شيئاً،
لا الحاضر، ولا أتفه ذرّة مما نعرفه.

44

لقد حان الوقتُ لكي أشرحَ فيه نفسي-
فلنقف جميعاً.

ما هو معروفٌ أرميه جانباً،
وأدفعُ بالرجال والنساء، قُدُماً معي، إلى المجهول.

الساعةُ تشير إلى اللّحظة،
فما الذي تشيرُ إليه الأبديةُ؟

استنفدنا لتونا مليونَ شتاء وصيف،
وما زالت ملايين أخرى تنتظر،
وأمامها ملايين تنتظر.

أتحفتنا الولاداتُ بالتنوّع والغنى،
غير أن ولاداتٍ أخرى
ستأتي لنا بالتنوع والغنى.

لا أقول إن هذا أعظمَ أو أصغرَ

فالذي يملأ زمانَه ومكانَه
يتساوى مع أيّ شيءٍ آخر.

أخي، أختي، أكان البشر
يضمرون لكما القتلَ أو الغيرةَ؟
أتأسّف لحالكما، فهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لي،
الجميع كان لطيفاً معي، ولا أجدُ ما أنوحُ عليه،
(وما الذي أصنعهُ بالنواح؟)

أنا ذروةُ الأشياء الكائنة،
وحاضنُ الأشياء التي ستكون،
قدماي تبلغان علوّ العلوّ على السلّم،
في كلّ درجة حفنةٌ من العصور،
وبين الدرجة والدرجة ثمة حفناتٌ أوسع،
صُعُداً عبرتها جميعاً كما ينبغي،
وما زلتُ أصعدُ وأصعدُ.

وثبةً تلو أخرى، تنحني الأخيلةُ ورائي،
في الغور السحيق خلفي، أرى العدَم الهائلَ الأوّل،
وأعرف أنني كنتُ هناك،

لكم انتظرتُ، كما دائماً، غيرَ مرئيٍ،
ونمتُ في الغَبَش المخدّر،
ولم أكن في عجلةٍ من أمري،
ولم يصبني أيّ أذىً من الكربون العفن.

طويلاً عانقني العالمُ - طويلاً وطويلاً.

هائلةً كانت التحضيراتُ لقدومي،
مخلصةً ودافئةً كانت الأحضانُ التي رعتني.

الفصولُ حملت مهدي، وراحت تجدّف وتجدّف،
مثل بحّارة سعداء،
من أجلي، أخلت النجومُ غرفةً في أفلاكها،
وراحت تُرسل سحرَها
للتأثير على طالعٍ من سيسندني.

وقبل أن يلدني رحم أمي،
أجيالٌ وأجيالٌ قادتني،
وما كان رحمي ساكناً، ولم يغشاهُ كدَرٌ.

من أجله تكوّرَ السديمُ على شكل مدارٍ،

والطبقاتُ الطويلةُ البطيئةُ تكثّفت ليستريحَ فوقها،
نباتاتٌ شاسعةٌ منحتهُ الطاقةَ للبقاء،
زواحفُ عملاقة حملته في أفواهها،
ووضعتُه بكلّ عناية.

كلّ قوى الكون تضافرت بثباتٍ
لتُكملَني وتسعدَني،
والآن، فوق هذه البقعةِ، أقفُ،
شاسعَ الرّوح.

45

آهٍ يا عمرَ الشباب! أيتها الرّشاقة المندفعة أبداً!
أيتها الرّجولة، المتوازنة، المتألّقة، التامّة!

عشّاقي يغرقونني،
يتهافتون على شفتيّ،
يسدّون مسامات جلدي،
يغرّرون بي في الشوارع والقاعات العامة،
يأتون عراةً في الليل إليّ،
ويصيحون نهاراً، مبتهجين، من أعالي صخور النهر،

متمايلين، ضاجّين، فوق رأسي،
ينادون باسمي من تحت مساكب الزهر، والكرمة،
والأغصان المعرّشة المتشابكة،
مشعلينَ كلّ لحظةٍ من حياتي،
مقبلّين جسدي قبلات بلسمية ناعمة،
مقدّمين لي – بصمت - حفناتٍ من أرواحهم لتكون لي.

أيتها الشيخوخة الناهضة بكلّ رفعة!
أهلاً بكِ، أنتِ أيتها البهاء الذي لا يوصف
للأيام المحتضرة!

الحالة لا تفصحُ عن نفسها فقط،
إنها تفصح عمّا يولد منها وما يأتي بعدها،
والسكونُ الدّاكن لا يقلّ إفصاحاً.

أفتحُ كوةَ سفينتي في الليل
وأرى الأفلاكَ المشعّةَ النائية،
وكلّ ما أراه، وما أتخيّله من كثرة مضاعفة،
لا يصل حوافَّ تلك المدارات البعيدة.

إنها ما تفتأ تنتشرُ أوسع فأوسع،
تمتدّ، ودائماً تمتدّ،
وتسبح دوماً في الفضاء، وتتوسّع.

لشمسي شمسُها التي تدور مطيعةً حولها كالعجلة،
وتنضمّ، مع شريكاتها، إلى مجموعة من الأفلاك الأعلى،
وتتبعها مجموعاتٌ أعظم،
تجعلُ أعظمَ الشموس داخلها ذرّاتٍ فحسب.

ليس هناك توقّفٌ، ولا يمكن أن يكون هناك توقّفٌ،
وإذا كنتُ أنا، وأنتَ، والعوالم، وكل ما تحتها أو فوقها،
ستتحوّل، في هذه اللحظة، إلى سرابٍ أصفر،
فهذا لن يفيدَ على المدى البعيد،
لأننا سوف نولد من جديد حيث نقف الآن،
ولسوف نمضي قدماً إلى الأمام، أبعد فأبعد.

بضعُ ملايين من الِحقَب،
أو بضع مليارات من الفراسخ المكعّبة،
لن تؤثّر على الدورة الكونية
أو تحرفها عن مسارها،

هذه ليست سوى أجزاء،
وكلّ شيء ليس سوى جزء.

حدّق دوماً في البعيد، ثمة مكان لامتناهٍ خارج ذلك،
واحصِ دوماً ما تشاء، ثمة زمانٌ لامتناهٍ حول ذلك.

لقد حُدّدت رحلتي، وهذا مؤكّد،
سيكون الربّ هناك، وسوف ينتظرني
حتى أجيء وفقاً لشروط مثالية،
وسيكون هناك الرفيق الأعظم،
العاشق المخلص الذي أصبو إليه.

46

أعرف أنّني أتمتّع بأفضل زمانٍ ومكان،
ولن يكون بمقدورِ أحد أن يقيسَني،
ولن أُقاس أبداً.

إنّي أغذّ السيرَ في رحلةٍ أزليةٍ (لتصغوا جميعاً)
إشاراتي معطفٌ مطريّ واقٍ، حذاءٌ متينٌ،
وعصاً مقطوعةٌ من الغابة.
لا صديقَ لي يشعرُ بالهناء على كرسيّ،

لا أملكُ كرسياً، ولا كنيسةً، ولا فلسفةً،
لا أقودُ أحداً إلى طاولة عشاء، أو مكتبة، أو بورصة،
غير أني أقودُ كلّ رجلٍ و امرأةٍ بينكم إلى تلّ عالٍ،
يدي اليسرى تحيطُ بخصركم،
ويدي اليمنى تشيرُ إلى آفاقٍ من القارّات،
وإلى الطريق العامّ.

لا أنا، ولا أحدٌ آخر،
يمكن أن يقطعَ تلك الطريق بالنيابة عنكم،
يجب أن تقطعوها بأنفسكم.

إنها ليست بعيدة، وهي في متناول اليدّ،
ربما كنتم عليها، منذ ولدتم، لكنكم لا تعرفون،
ربما كانت في كل مكان، على الماء أو اليابسة.

أي بني!
ضع صرّتكَ على كتفكَ، ولأضع أنا صرّتي،
ودعنا نمضي في سبيلنا،
سنرى مدناً رائعةً، وأمماً حرّة، أمامنا.

ولئن أعياكَ التعبُ، فلتعطني الصرّتين،

ولتُرِح ساعدكَ على وركي،
وفي الوقت المناسب، ستردّ لي نفسَ الجميل،
فما أن ننطلق، لن نتوقّف لحظةً.

هذا النهار، قبل الفجر، صعدتُ أعلى التلّ
ونظرتُ إلى السماء المزدحمة، وقلتُ لروحي:
عندما نصبحُ حاضَنين لكلّ هذه المدارات،
ونصبحُ متعةَ ومعرفةَ كلّ شيء فيها،
هل سنشعر بالامتلاء والرضى؟
أجابت روحي:
كلاّ، ولكننا نزيحُ ذاك الثِقل، من أجل نمرّ،
ونتجاوزَه.

أنتَ أيضاً، تطرحُ عليّ أسئلةً، وأنا أسمعكَ،
أجيبُ بأني لا أستطيعُ أن أجيبَ،
وعليكَ أن تجدَ الجوابَ بنفسكَ.

اجلس قليلاً، يا بني العزيز،
ثمة بسكويتاً لتأكلَ وحليباً لتشربَ،
ولكن ما إن تنام، مرتدياً أجمل ملابسكَ،

أقبّلكَ قبلةَ الوداع،
وأفتحُ البوابةَ لتنطلقَ من هنا.

مضى زمنٌ طويلٌ وأنتَ ترى أحلاماً وضيعة،
الآن سوف أغسلُ القذى عن عينيك،
وعليكَ أن تعوّدَ نفسكَ على لألأة الضوء،
وبريقِ كلّ لحظة من حياتك.

مضى زمنٌ طويلٌ وأنتَ تخوّضُ خائفاً،
متشبّثاً بلوح خشبي قرب الشاطئ،
الآن أريدكَ أن تكون سبّاحاً جسوراً،
وأن تقفزَ وسط اليمّ، وتنهضَ من جديد،
تشيرُ لي، وتصيحُ، وتغطسُ، ضاحكاً، بشعركَ.

47

أنا معلّمُ الرياضيين،
وذاك الذي يظهر صدراً أوسع من صدري
فإنما يبرهن على اتساع صدري،
وخيرُ من يتقن أسلوبي، هو ذاك الذي يتعلّم به
كيف يحطّم المعلّم.

الصبي الذي أحبّ، أصبحَ رجلاً،
لا بقوّةٍ مكتسبة، بل بفضل قوته هو،
شريراً، أكثر منه فاضلاً، بسبب الخوف أو التكيّف،
مغرماً بحبيبته، متذوقاً طعمَ لحمهِ جيداً،
يجرحُه الحبّ الظمآن أو الإهانةُ
بأشد ما يجرحُ الفولاذُ القاطعُ،
الأمهرَ في امتطاء الخيل، والقتال،
وإصابة عين الثور، والإبحار بزورقٍ شراعي،
وإنشاد أغنية، والعزف على البانجو،
مفضلاً الندوبَ واللحى والوجوه المنمّشة بالجدري
على تلكَ الوجوه المتأنقة،
والوجوه الملفوحة جيداً، على تلك التي تهابُ الشمس.

أعلّمُ الآخرين الضلالَ عنّي،
ولكن من يستطيع الضلالَ عنّي؟
إني أتبعكَ، كائناً من تكون، منذ هذه الساعة،
جاعلاً كلماتي تطنّ في أذنيك حتى تفهمها.

إني لا أقول هذه الكلمات مقابل المال

أو لكي أملأ الوقتَ وأنا أنتظرُ القاربَ،
(إنه أنتَ من يتكلّم، مثلي أنا، تماماً،
أنا لسانكَ، موثوقاً إلى فمكَ،
ولكن في فمي تُحلّ عقدته.)

أقسمُ أنني لن أذكرَ الحبّ أو الموت
ثانيةً داخل منزل،
وأقسم أنني لن أترجمَ نفسي أبداً،
إلاّ له أو لها
ممن يمكث معي، وحيداً، في الهواء الطلق.

إذا أردتَ أن تفهمني
اذهب إلى الأعالي أو الشطآن،
حيث أقرب بعوضة هي بمثابة شرح،
وأصغر قطرة أو هدهدة لموجة هي بمثابة مفتاح،
حيث الفأسُ والمجداف ومنشار اليد، حرسٌ لكلماتي.

لا الغرف الموصدة ولا المدارس المعتمة
تستطيعُ أن تتحاورَ معي،
وحدهم المخشوشنون والأطفال الصغار يستطيعون ذلك.

الميكانيكي الشاب أقرب إليّ، ويعرفني جيداً،
الحطّاب الذي يأخذ فأسَه وإبريقَه معه،
سوف يأخذني معَه طوال النهار،
صبي المزرعة الذي يحرثُ الحقلَ
يبتهجُ لدى سماع نبرة صوتي،
وفي القوارب المبحرة تبحرُ كلماتي،
أذهبُ مع الصيادين والبحّارة، وأحبّهم.

الجنديّ في معسكره أو على أهبة الزّحف هو صديقي،
في الليلة التي تسبق المعركة المقررة، كثيرون يأتون إلي،
وأنا لا أردّ لهم طلباً،
في تلك الليلة الرّزينة (ربما كانت ليلتهم الأخيرة)
أولئك الذين يعرفونني، يأتون في طلبي.

وجهي يلامسُ وجهَ الصياد
الذي يستلقي وحيداً، متلفعاً بشرشفه،
السائقُ الذي يفكّر بما أقولُ لا يهمّه صرير عربته،
الأم الشابة والأم المسنّة، كلاهما تصغيان لي،
الزوجة والفتاة تريحان الإبرة للحظة

وتنسيان أين هما،

هؤلاء، والعالم بأسره، يأخذونَ بما قلتهُ لهم.

48

قلت إنّ الروح ليست أعلى من الجسد،

وقلتُ أيضاً إن الجسد ليس أعلى من الروح،

ولاشيء، حتى الرّب، أعظم للمرء، من نفس المرء،

وكل من يمشي فرسخاًواحداً دون رأفة،

يمشي إلى جنازته، ملتفاً بكفنه،

حتى وإن كنا، أنتَ أو أنا، مفلسين من أي قرش،

نستطيعُ أن نشتري خيرَ ما في الأرض،

فالنظرُ عبر عينٍ، أو رؤيةُ حبة فاصولياء تتفتّق،

يريك كل علوم الأزمنة،

ولا توجد مهنة أو وظيفة

إلا وتجعل من الشاب الذي يتقنها بطلاً،

و لا يوجد شيء في العالم، مهما كان صغيراً،

إلاّ ويصلحُ محوراً لعجلة الكون،

وأقول لأي امرأة أو رجل:

دعوا أرواحَكم تقفُ صامدةً متماسكةً

أمام مئات ملايين الأكوان.

وأقول للخليقة، لا تكوني فضولية بشأن الله،
ذلك أنني أنا، الفضولي حيالَ كل شيء،
لستُ فضولياً بشأن الله،
(لا توجد مصطلحات هناك، مهما كثرت،
تستطيع أن تكشفَ
كم أنا في سلامٍ مع الله، ومع الموت.)

أسمعُ وأرى الله في كل شيء،
لكنني لا أفهم منه شيئاً البتّة،
كما أنني لا أفهم إن كان أحدٌ
أكثر روعةً من نفسي ذاتها.

لماذا عليّ أن أرغبَ برؤية الله
في يوم أحلى من هذا اليوم؟
أرى شيئاً من الله في كلّ ساعة
من الساعات الأربع والعشرين،
وفي كل لحظة من لحظاتها.

في وجوه الرجال والنساء أرى الله،

وفي وجهي داخل المرآة،

أعثرُ على رسائل من الله مرمية في الشوارع،

وكلّ رسالة ممهورة باسمه،

وأنا أتركها حيث هي،

لأنني أعرف أنني حيثما حللتُ،

فإن رسائل أخرى، ستجيءُ، دائماً وأبداً،

وفي الوقت المحدّد.

49

أما أنتَ، أيها الموت،

أيّها العناقُ المرّ للفناء،

فمن العبث أن تحاولَ إخافتي.

إلى عمله، دون تقاعس، يأتي الطبيبُ المولّد،

أرى يدَه الخبيرةَ تضغطُ وتستقبلُ وتسندُ،

أتكئُ على الأبواب المتحرّكة المرنة،

وأشاهدُ لحظةَ الإنجاب، وأشاهدُ الطمأنينةَ، والنجاةَ.

أما أنتِ أيتها الجثة، فأعتقد أنكِ سمادٌ جيدٌ،

وهذا لا يضيرني،

فأنا سأشمّ الورودَ البيضاء ذات الرائحة العطرة

وهي تنمو،

وألمسُ الشفاهَ المورقةَ، وألمسُ

النهودَ المصقولة للبطيخ.

وأنتِ أيتها الحياة،

أحسبُ أنّك وداعُ ميتاتٍ كثيرة،

(لاشك أنّني متّ عشرة آلاف مرة من قبل).

أسمعكِ تهمسين هناك، يا نجوم السّماء،

أيتها الشموس - يا عشب القبور -

أيتها التحولات والتساميات الأبدية،

إن لم تقولي شيئاً،

فكيف لي أن أقولَ أيّ شيء؟

للبركة العكرة الهاجعة وسط غابة الخريف،

للقمر الذي يهبطُ منحدرات الشفق المتوجّع،

اخفقي، يا شرارات النهار والغسق -

وتناثري فوق الجذوع السوداء

التي تتعفّنُ في المستنقع،

تناثري فوق الغمغمة المتألمة
للأغصان اليابسة.

أطلعُ من القمر، أطلعُ من الليل،
وأدرك أنّ السراب المتوهّج
ليس سوى أشعة الظهيرة المعكوسة،
وأنطلقُ كالنهر إلى الجوهريّ والثابت
من فرعٍ صغير أو كبير.

50

ثمة ذاك الشيء الكامن فيّ - لا أعرف ما هو -
لكنني أعرف أنه كامن فيّ.

هذا جسدي،
منهكاً، يتصبب عرقاً - لا يلبث أن يبردَ ويهدأ،
فأخلدُ للنوم - طويلاً أنامُ.

لا أعرفُ ما هو - إنه بلا اسم - إنه كلمة لم تُقَل،
إنه ليس في أي معجم، أو نطقٍ، أو رمز.

شيءٌ يتأرجحُ أكثر من الأرض التي أتأرجحُ فوقها،
الخلقُ بكلّيته صديقٌ له، وعناقُه يوقظني.

ربما رويتُ أكثر من ذلك. أتريدون خطوطاً عريضة؟
أتوسّل إلى أخوتي وأخواتي.

أترون، يا أخوتي وأخواتي؟
إنه ليس الموت أو الفوضى،
إنه الشكلُ، والاتحادُ، والتناسق،
إنه الحياة الخالدة،
إنه السعادة.

51

يذوي الحاضرُ والماضي - لقد ملأتهما، ثمّ أفرغتهما،
وها أنا أمضي لأملأ نسختي القادمة من المستقبل.

أيها المنصتُ هناك، ما الذي تريدُ أن تسرّه لي؟
انظر في وجهي وأنا أطفأُ ذؤابةَ المساء،
(تحدّث بصراحة، لا أحدَ آخرَ يسمعك،
وأنا لن أمكث أكثر من دقيقة أخرى.)

أتراني أناقضُ نفسي؟
حسنٌ، إذن، إني أناقضُ نفسي،
(أنا شاسعٌ، وأتّسع لكلّ الخليقة)

أصبو إلى أولئك الذين أوشكوا على الانتهاء،
وأنتظرُ خلف عتبة الباب.

من أنهى عملَ يومه؟ من سيكون الأسرعَ
في تناول عشائه؟ من يرغب بالمشي معي؟

هلاّ قلتَ شيئاً قبل أن أمضي؟
أم أنك ستبرهنُ أنّ الأوان قد فات؟

52

النسرُ المرقّط ينقضّ ويتّهمني،
شاكياً هذَري وتسكّعي.

أنا أيضاً لا أُرَوّضُ البتّة، وغيرُ قابلٍ للترجمة،
أرفعُ صرختي البربرية فوق سقوف العالم.

شهابُ آخرِ النهار ينتظر من أجلي،
يتلقّف صورتي ككل الأشياء الأخرى،
ويعكسها فوق البراري المشتولة بالظلال،
يغويني ويستدرجني إلى الغَسق والضباب.

أرحلُ كالهواء، أهزّ خصلاتي البيضاء

فوق الشمس الهارية،
أسكبُ جسدي في دوامة المدّ والجزر،
أذروهُ على شكل موجاتٍ ملوّنة.

أورّثُ نفسي للتراب،
لكي أنموَ من العشب الذي أحبّ،
وإن أردتني ثانيةً، ابحث عني تحت نعل حذائك.

قد لا تعرفُ من أنا أو تدركُ ما أقصد،
لكنني سأكون عافيةً لكَ، مع ذلك،
أنقّي وأقوّي دمَكَ.

إن فشلتَ بإحضاري في المرة الأولى، لا تجزع،
وإن ضيّعتني في مكانٍ، ابحث عني في آخر،
سأكونُ متوقفاً، في بقعةٍ ما، أنتظرُ قدومكَ.

1881- 1855

هوامش

المقطع (2)

تشير الرمزية في الأبيات الستّ الأولى إلى التعارض بين التجربة المتأتية من قراءة الكتب وتلك المنبثقة من التناغم مع عالم الطبيعة - وهذا مفهوم اتكأ عليه كثيراً الشاعر الإنكليزي الشهير وردزورث. كما أن التضمين بين قوسين في آخر هذا المقطع يدلّ على دراية ويتمان العميقة ببعض المسائل الفلكية، وهي معرفة متقدمة على زمانه. ويقال أنه تأثّر بمجموعة محاضرات كان قد ألقاها في نيويورك عالم الفلك الأمريكي أورمزبي ماكنايت ميتشل في كانون أول، عام 1847.

المقطع (5)

الجدال الدائر في هذا المقطع بين الروح والجسد، والذي يمثل تقليداً ثابتاً في أدب العصور الوسطى، ترك أثره على كتاب لاحقين. والسائد هو أن الروح والجسد نقيضان أو عدوان، أحدهما يمثل الخير، والآخر الشرّ. غير أنه في هذه الوحدة الصوفية بين الروح والجسد، والتي تم التعبير

عنها بواسطة صور لا تخلو من بعد إيروتيكي، نرى الشاعر يعيشُ كشفاً حدسياً مباشراً وعفوياً. واللافت هو أنّ هذه الحالة العرفانية تتحقق، ليس من خلال التخلي عن الحواس الخمس، بل عبر تفعليها والوصول بها إلى ذروة التناغم مع الروح.

المقطع (10)

يستحضر ويتمان في هذا المقطع لوحة للرسام ألفرد جاكوب (1810 -1874) من مدينة بلتيمور، وهي بعنوان (عروس الصياد). والمقطع برمته مثال جيد عن عادة ويتمان الدمج بين تجربته الشخصية وتجارب الآخرين، عبر صور تتسلل إلى نصه، وعايشها في شبابه، مثل حادثة العبد الهارب التي ربما يكون قد عاشها أو شهدها، وتلك التجربة المتخيلة عن الصيادين، واستحضار العروس الهندية، والاتكاء على تلك اللوحة المذكورة آنفاً.

المقطع (22)

الأبيات الست الأخيرة تشير إلى فكرة هيغل عن تصالح الأضداد، وهي فلسفة تركت أثراً واضحاً على رؤية

ويتمان، بالرغم من أن المسألة ما تزال موضع جدل ونقاش بين نقاد ويتمان.

المقطع (23)

يشير ويتمان إلى دواء شعبي متداول كان يُعتقد بأنه يشفي الجروح، وقد مُزج هنا بشجرة الأرز، الشجرة التي تُقرن دائماً بالمقابر وبقدرتها على بعث الطمأنينة في قلوب المحرومين. أما الليلك فقد استخدمه ويتمان في مرثيته الشهيرة عن الرئيس المقتول أبراهام لينكولن كرمز للحب والصداقة. في الأبيات التي تلي هذه، يشير الشاعر إلى الأعمدة القديمة والمنحوتات التي تأخذ شكل الرُقم. وهذا يعود إلى اهتمام ويتمان بالفن المصري القديم وتلك الكتابات الهيروغليفية التي خلفها الفراعنة على جدران معابدهم. ويشير مؤرخو ويتمان إلى أنه كان من الزوار المواظبين لمتحف الفنون المصرية القديمة الذي كان يشرف عليه، عندئذ، الدكتور هنري أبوت في شارع برودوي في نيويورك.

المقطع (31)

في إحدى دفاتر ويتمان تم العثور على هذا المقطع: "الروح أو النفس تبثّ نفسها في المادة - في الصخور، حيث تعيش حياة الصخرة-، وفي البحار، حيث تعيش حياة البحر - وفي الشجر، والحيوان، حيث ترى نفسها حصاناً، أو سمكة أو طيراً - وتبث نفسها في حركات الشموس والنجوم." المقطع بمجمله يعكس مفاهيم تطور الأنواع الذي تحدّث عنه داروين لاحقاً، وبعد سنوات قليلة، في كتابه (أصل الأنواع).

المقطع (33)

هنا تبرز موهبة ويتمان المدهشة في ما يُسمى فهرسة التفاصيل (cataloguing)، وهي خاصية لطالما دُلل من خلالها على "بربرية" الشاعر أو حتى "سذاجته" كفنان. هذا الجانب من تقنيته يبرهن على ما يمتلكه ويتمان، في حقيقة الأمر، من مخيلة عظيمة تحتفي بتجلي الله في كل شيء، وحلوله في الطبيعة. في الأبيات الأخيرة التي تختم هذا المقطع الطويل يصف ويتمان غرق السفينة "سان

فرانسيسكو" التي كانت قد أبحرت من نيويورك في 23 كانون الأول من عام 1853، متوجهةً إلى أمريكا الجنوبية، وكان على متنها 150 بحاراً غرقوا جميعاً في بحر واحد. وقد نقلت أخبار الكارثة صحيفة نيويورك تريبيون الأسبوعية على صدر صفحاتها في كانون ثاني من عام 1854، حيث عُثر على إحدى أعدادها لاحقاً بين أوراق ويتمان.

المقطع (34)

هذه قصة المجزرة التي ارتكبها الأعداء المكسيكيون بحق الكابتن فانين وصحبه المؤلف من 371 مقاتلاً، في مدينة تكساس، بعد استسلامهم في آذار من عام 1836.

المقطع (35)

مصادر ويتمان في سرد هذه الواقعة هي تلك القصص التي روتها جدته نعومي فان فيسلر، والذي كان والدها قد خدم في كتيبة الكابتن جون بول جونز، والسرد الذي يقدمه جونز نفسه في رسالة بعث بها إلى بنيامن فرانكلين

عن المعركة التي وقعت في 23 أيلول من عام 1779 بين قواته والقوات البريطانية.

المقطع (41)

الإله كرونوس، أحد الجبابرة، وابن يورانوس وغايا، خلعَ والده عن العرش، وخُلع بدوره على يد ابنه، زيوس. أوزيريس، إله العالم السفلي في الميثولوجيا المصرية. إيزيس هي إلهة الخصب في الديانات الفرعونية، وهي شقيقة وزوجة أوزيريس. بيلوس هو الملك الخرافي للآشوريين. ومانيتو يمثل روحاً في الطبيعة لدى الهنود الحمر. ماكسيتللي هو إله في الميثولوجيا الأزتيكية (Aztec). براهما في الديانة الهندية هو الروح الأعلى للكون. وأودين، في الميثولوجيا النوردية (Norse) هو إله الحرب.

المقطع (51)

في الشطر الثالث من هذا المقطع يسأل ويتمان: "هل أناقض نفسي؟" ويجيب أنه لا ضير في أن يناقض نفسه. هذه الفكرة مستوحاة من مقالة للفيلسوف الأمريكي، والملهم الأول لويتمان، رالف والدو إمرسون، بعنوان (الاعتماد على

الذات) والتي ظهرت في عام 1841، وفيها يقول: "الثباتُ الأحمق هو سمةُ العقول الصغيرة، يحترمها رجال الدولة الصغار، والفلاسفة، وعلماء اللاهوت."

المقطع (52)

عبر سلسلة من الصور الجريئة- النسر، الشهاب الهاوي، أو التموجات الحرّة لغبَش المساء، أو التراب الذي يغذّي العشبَ- يتركُ الشاعرُ للقارئ إرثه الجميلَ المتمثّل بالقوة أو الطاقة الطبيعية العظيمة، والتي لا يمكن تفسيرها أو ترجمتها، رغم أنها موجودة في كل مكان - في السماء أو تحت القدَم.

صدر له (عابد اسماعيل)

في الشعر:

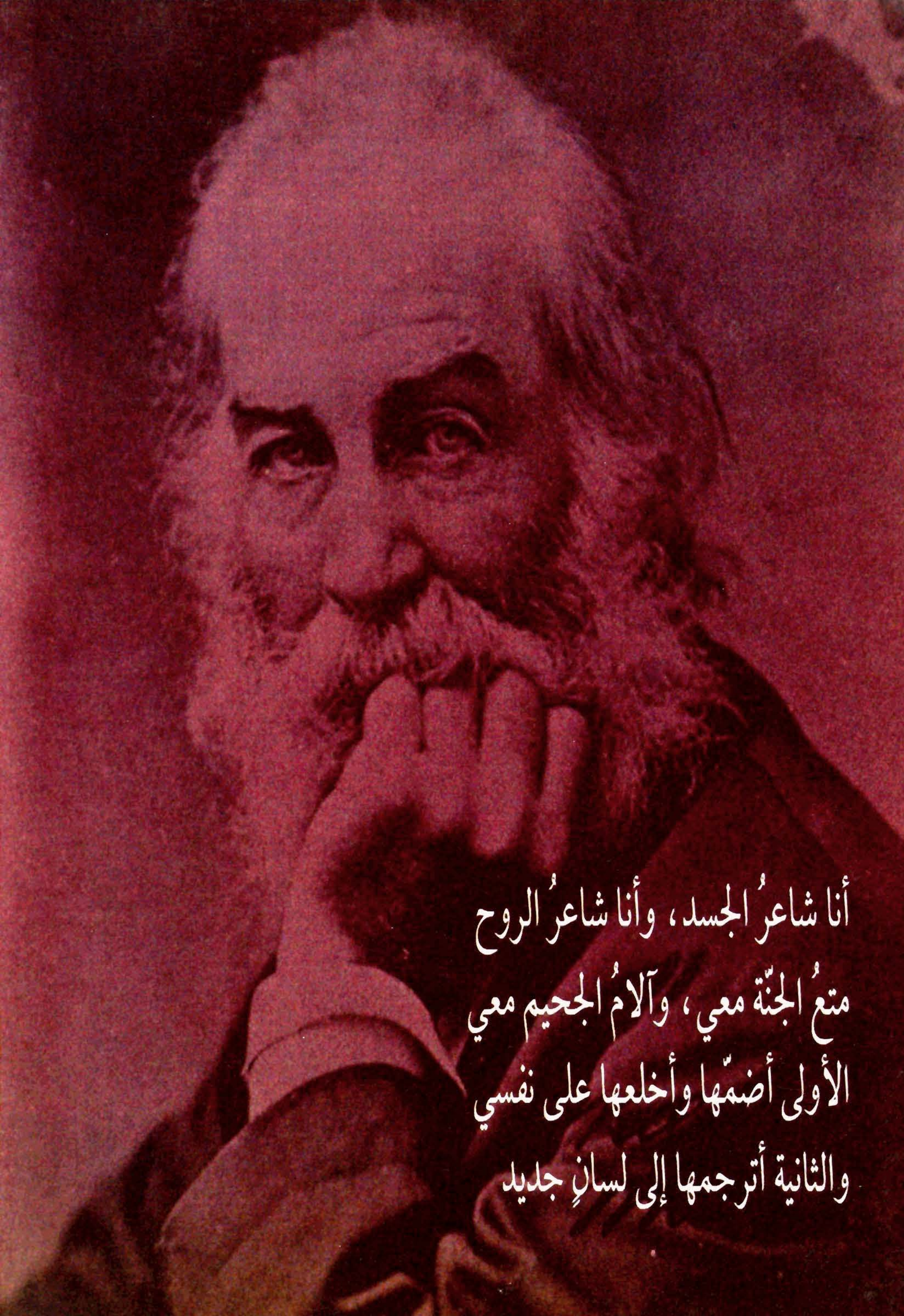
- طواف الأفق	دار الكنوز الأدبية، 1998، بيروت
- باتجاه متاه آخر	دار الكنوز الأدبية، 1999، بيروت
- لن أكلم العاصفة	دار الكنوز الأدبية، 2000، بيروت
- ساعة رمل	دار الينابيع + دار الكنوز، 2003، دمشق، بيروت

في الترجمة:

- قلق التأثر، هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1998
- نظرية لانقدية، كريستوفر نوريس، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999
- سبع ليال، خورخي بورخس، دار الينابيع، دمشق، 1999
- خريطة للقراءة الضالة، هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2000
- بورخس (مذكرات)، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، 2002
- الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2002
- نصف حياة، ف. س. نايبول، دار المدى، دمشق، 2002
- ادفنوني واقفاً، إيزابيل فونسيكا، دار البلد، دمشق، 2003
- ساعة حياة، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، 2003
- فن الكتابة، توني بارنستون وتشو بينغ، دار المدى، دمشق، 2003
- باقة برية، هاري مارتنسون، دار المدى، 2005
- الذين يحبون الشوك، جونيشيرو تانيزاكي، دار المدى، 2005

في النقد:

- ولاس ستيفنس: تخيل صوت أسمى (أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية) جامعة نيويورك، 1995


أنا شاعرُ الجسد، وأنا شاعرُ الروح
متعُ الجنّة معي، وآلامُ الجحيم معي
الأولى أضمّها وأخلعها على نفسي
والثانية أترجمها إلى لسانٍ جديد